أسماء عبدالراضي محمد

بيت العنكبوت

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى

الكتاب : بيت العنكبوت

تأليف : أسماء عبدالراضي محمد

طباعة : دار الرضا للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٢١/٧٠٣٥م

الترقيم الدولي :0 - 5 -978-977-85856

رئيس مجلس الإدارة

رضا عبادة

المدير العام

العزب فتحي

٩ شارع فاطمة الزهراء من شارع الترابيع

الطوابق - جيزة

ت/ ٠١١١٤٤٨١٤٦١ - ٠١٠٩٠٢٧٢٧٧٦

تصميم الغلاف الفنان / محمد مخلوف

مراجعة وتدقيق : مكتب الموهوب " د/ حازم الصبيحي "

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى والدي الحبيب، رأس مالي في هذه الحياة، النهر الذي أنهلُ من نبع حنانه العذب ..
إلى والدتي الغالية، القلب الحنون الذي ينبض بحبي، عنوان الطيبة والعطاء ..
إلى إخوتي الأعزاء، عُزوتي وسر سعادتي ..
إلى كل من علمني حرفًا، حكمةً، درسًا.. وإن كان قاسيًا.

إليكم جميعًا أهدي هذا الكتاب..

أسماء عبدالراضي محمد

طيارة ورق

شمس الصيف أكلت وجهي الصغير الذي اعتاد لفحها كل يوم أثناء بيعي للمناديل في إشارات المرور، لكنني لم أنتهِ بعد، لا يزال جبيني يكتنز بضع حبات من العرق، لا يصح أن أمضي دون سفكها على أرض هذا النادي الذي ضقت من المجيء إليه، لكن مرض أبي لم يدع أمامي فرصة للاختيار..

_انتبه لعملك جيدًا يا ولد، لا تتلكأ.

لا أدري لماذا وصفني بالتلكؤ، رغم أن جسدي يبكي عرقًا، ويدي المُتّسختين تشهدان على همّتي، ربما تلك العرجة في قدمي اليمنى أوحت له بالتلكؤ قليلًا، قد ذاب ما تبقى منها وأنا أجوب أرض النادي كنسًا وتنظيفًا، آتي هنا منذ ثلاثة أيام بدلًا عن أبي حتى يتعافى.

سرق جمالها بريق عينيّ الضيقتين، وقفت مندهشًا أرقبها في سعادة كست وجهي الذي يفتقر إلى بسمة تخفف حدة بؤسه، تحلّق بخفة ورشاقة، يمسك بخيوطها ولد في سني تقريبًا، نظيف الملبس، بهيّ الطلعة، تجلس أمه بالقرب منه تشعّ منها أنوار الراحة والدعة، تقاسمه الضحكات والصيحات تعليقًا على جمال الطائرة الورقية التي ترفرف في سماء الحديقة.

تسللت كاللص نحو ذلك الولد الذي انشغلت أمه قليلًا، قرأ اللهفة والعجب في عينيّ الجاحظتين وفمي المفتوح كالأبله، ابتسم لي، ثم أشار بيده فاقتربت منه.

_هل تريد أن تجرّب؟

نظرت إلى عربة القمامة، ثم إلى تلك الطائرة التي ذهب سحرها بلُبّي، ثم راحت عيني تفتش عن ذلك الذي يراقب سير عملي، لكنني لم أره، أومأت للولد فأعطانيها، لم يصدق قلبي الذي تراقصت نبضاته فرحًا، كما لم تصدق يدي وهي تمسك بلعبة كهذه لأول مرة مذ خُلِقَتْ.

_ أنت يا ولد، كيف تجرؤ على ذلك؟!

_أنا الذي أعطيته إياها يا أمي.

غضبت المرأة، وأطلقت لسانها بالسباب، إذ كيف لابنها أن يلعب مع صعلوك مثلي يرسف في أغلال الفقر، جاء المسؤول عن متابعة عملي، اعتذر للمرأة، وقدم طردي قربانًا لقبول اعتذاره، كما توعد بطرد أبي إن لم يعد للعمل خلال يومين.

تركتهما وانزويت بعيدًا أدفع العربة بدموعي الغاضبة، يجب أن أملأ عيني من تلك العربة، حتى لا أجرؤ مرة أخرى.

في البيت، ترددت قليلًا قبل أن أخبر أمي بما حدث، لكنها هوّنت عليّ، قالت إن أبي أوشك أن يتعافى، كذلك وعدتني أن تصنع لي طائرة أفضل من التي رأيتها، فرحت كثيرًا، لكن جزءًا بقلبي خاف أن يصدق.

نمت ليلتها أصارع حلم الحصول على (طيارة) ورق، وفي الصباح أحضرت أمي بعض الأوراق والأعواد وعصًا صغيرة، كدت أطير فرحًا عندما رأيت ما تصنع أمي يقترب شكلًا من تلك التي رأيتها مع طفل النادي، فوق سطح البيت رحت أجربها، حاولت معها كثيرًا.. كثيرًا حاولت..!

رجل أعمال

قام أحد نزلاء مستشفى الأمراض العقلية اليوم بالانتحار، فجئت لتغطية الخبر، ستعينني على هذه المهمة صديقتي الدكتورة «منال» التي تعمل هنا.

جلست أنتظرها في حديقة المشفى، أخرجت هاتفي لأجري اتصالًا بزميلة لي في الصحيفة التي أعمل بها، ما إن أغلقت الهاتف حتى جلس بجواري رجل على مشارف الخمسين، يرتدي بذلة سوداء فاخرة، رمقته بنظرة متسائلة، فقال:

_ألا تعرفينني؟

بتأفف أجبته:

_لم أَنَلْ هذا الشرف بعد.

هبَّ واقفًا، عبث بأزرار بذلته، مد يده مصافحًا، وقال بابتسامة عريضة:

_حسين العربي، رجل أعمال.

«نعم نعم، إنها مهنة من لا مهنة له» أسررتها في نفسي ولم أُبْدِها له.

_أهلًا وسهلًا بحضرتك.

صمت لحظات كمن يتذكر شيئًا، ثم قال بلهجة لم تَخْلُ من الفخر:

_هل سمعتِ عن حسين العربي قبل اليوم؟

_ترددت قليلًا قبل أن أجيبه:

_حقيقة لم أسمع عنه من قبل.

فبدا الانزعاج على وجهه مختلطًا بحزن شديد، فأكملتُ:

_الحق أني لست من سكان القاهرة.

_أنا وبلا فخر صاحب ...
وراح يعدد أملاكه وأعماله حتى سئمت الكلام، فهؤلاء لا يعرفون غيره، لكنه بدأ يتحدث عن مستشفيات قام ببنائها، ومشاريع خيرية يشرف على إتمامها، بدأ الشك يساورني، فأنا أعرف هؤلاء جيدًا، لا يهمهم سوى المظاهر وأخذ اللقطة، لم أَنْسَ يوم أن طلبت إلى أحدهم المساعدة في علاج بعض الحالات، فرحّب ووعد بالمساعدة، لكنه اشترط مساحة إعلانية في الصحيفة لحساب شركاته، ولما أعياني شرح الفاصل بين هذه وتلك، تحدثت إلى رئيس التحرير الذي أخبرني أن هناك من عرض مقابلًا أعلى لتلك المساحة، فذهب الوعد بالمساعدة أدراج الرياح.
_ إنني أحب مساعدة الناس كثيرًا، أشعر بالسعادة عندما أفعل.
_شيء رائع.
_لكن أهل الشر كُثُر، لا يعجبهم ذلك.
_ أهل الشر؟!
_نعم، زوجتي وأبنائي، يعترضون على قراراتي كثيرًا.
_ربما يخشون تبديد الثروة.
_ لكنني لا ألتفت إليهم، أفعل ما أريد.
فكرت في أن أعرض عليه الحالات التي تحتاج إلى مساعدة، فكرة جيدة ومنها أعرف حقيقة ما يتشدَّق به.
_عندي حالات تحتاج المساعدة، هل ..
لم يمهلني إتمام جملتي، اندفع قائلًا:
_طبعًا طبعًا، أساعدهم بلا شك.

سررت كثيرًا، أخيرًا وجدت متبرعًا، وأي متبرع، بدأت حرارة الجو تزداد، فأحسست بالعطش، وكأنه شعر بي، قال بصوت يخالطه السأم:

_سأشرب عصيرًا مثلجًا، هل تريدين؟

_أكون شاكرة لحضرتك جدًا.

_المشروب هنا بخمسة جنيهات.

ارتبكت قليلا وأنا أبحث في حقيبتي عن خمسة جنيهات، أعطيتها له، فتوجه ناحية الشجرة القائمة على بعد خطوتين من مكان جلوسنا، حفر حفرة بيديه، ألقى بالجنيهات الخمس، ثم أهال عليها التراب، نظرت إليه في ارتياب وتساؤل، فقال وهو يقترب مني بحذر شديد:

_خمس دقائق، ستنبت هنا شجرة وتأخذين منها العصير الذي تريدين، لكن لم تخبريني، جوافة أم مانجو؟!

قطرة جاز

تركتُ ذلك السرير البائس، الذي خاصمه النوم، وتوجهتُ ناحية الشرفة، بدأ الظلام يحتضن الشارع، غير أن حركته لم تهدأ بعد ..

_تُرى هل أصبتُ فيما عزمتُ عليه، أم أنني جننتُ كما وصفني أخي ذات يوم؟

«ماذا يقول عنّا الناس» لقد كرهت هذه الجملة بفضل أخي الذي يعطي القيل والقال قدرًا فوق ما يستحق، لكن طائر الموت الذي حلّق فوق بيوت العائلة لمدة ثلاثة أعوام، كان قادرًا على تلقينه الدرس جيدًا.

نظرت إلى الحقيبة القابعة على الكرسي كجثة هامدة، أخرجته، أبيض كالثلج، يذكرني بالسلام الذي افتقدناه، يوحي بالبهجة والتفاؤل أيضًا.

_تُرى هل يكمن الخير بين طيّاتك؟

ولمَ لا..؟! يكفي أن براكين الدماء ستخمد، سيفرّ الخوف الذي سكن عيون الصغار وقلوب الكبار، سأغمض عينيّ بطمأنينة بعد معاناة دامت طويلًا، تمر ساعات الليل بطيئة كسلحفاة ضلت طريقها، فتصرعني الهموم والآلام ..

لقد تركتني الإنسانة التي اختارها قلبي؛ لتكمل معه معارك الحياة، لم أعد مناسبًا لها بعد اليوم، كذلك قال أبوها بعد أن عرف ما عزمت عليه، رغم أن دموعها في آخر لقاء بيننا قالت غير ذلك.. إلا أنني شيَّعت بقاياها، ووأدت تلك الدموع بلا تردد.

لقد انقلبت حياتنا رأسًا على عقب خلال تلك السنوات الثلاث،

ما عدت أركز في علم أو عمل، حقًا ضقتُ بهذا الشتات، لم أعد أتحمل سماع نحيب أمي وهي تختبئ به بعيدًا عن أعيننا، لقد اشتعل رأسها شيبًا قبل الأوان، وتخضبت أيامها بحمرة الدماء ومرارة الفقد.

قطرات من الجاز هي بطلة موقف تافه فتح حسابًا جاريًا من الخسائر المتبادلة بين عائلتين، حين اعترض الشيطان طريق رجلين ونفث السم في قلبيهما، فاستبدَّ بهما العناد، وكل منهما يقسم أن يكون هو الحاصل أولًا على حصته من الجاز، استولى الغضب على أبي، فضرب الرجلَ ضربة أودت بحياته، من أجل قطرات من الجاز دفعنا الثمن أنهارًا من الدماء، ولياليَ من الخوف، توفي أبي بالحمى بعدها بثلاثة أشهر وترك لنا ذلك الإرث، الذي سأدفنه غدًا أمام الجميع، دقائق معدودة وينتهي كل شيء..!

****

اثنان من الأجاويد، كل واحد منهما يمسك بذراع، أنقاد بينهما والكفن مستلقٍ على يدي كطفل أخشى سقوطه، أسير في مشهد مهيب بين ما يزيد عن ألفيّ نفس من أهل القرية وخارجها، أسرة القتيل على رأس الحضور، يصطفون في انتظارنا، يتوسطهم صاحب الدم، شاب في العشرين من عمره، طالما جلس أمامي، طالما حدثته عن الأخلاق والمبادئ..

أشعر أن قدمي لا تقوى على احتمالي، أسير بخطوات عجوز في السبعين، حاولت طرح خواطر الشؤم عن عقلي، ستجف أنهار الدماء اليوم على يدي.. أقصد على كفني..

أصوات تنادي، واسمي يتردد في مكبر الصوت الذي يصلني متقطعًا، تفترسني النظرات بلا رحمة، دقات قلبي تزلزل أركاني، الشيخ يردد كلامًا طيبًا، غير أن عقلي المشتت يحول دون استيعاب كل ما يقال.

أمام الشاب ذي العشرين عامًا، وقفت في انكسار حاولت جاهدًا أن أخفيه، لكنه أبى إلا الظهور، تلاقت العيون فنسجت حديثًا مبتورًا، وضع الشيخ يده على كتفي ثم قال:

_"جئتُ إليك أطلب الصفح والعفو"؛ فقلتها خلفه بصوت واضح، ثم دار بوجهه ناحية الشاب -صاحب الدم-، وقال:

_"عفوت عنك لوجه الله"، لكن الشاب لم يردد، أعادها الشيخ ثانية وثالثة، بدأت دقات قلبي تزداد اضطرابًا، غمغم الحضور وضج المكان بضوضاء لم يقطعها سوى صوت الشاب الذي انفجر باكيًا ثم جثا على ركبتيه يقبل يدي، حاولت أن أثنيه عن ذلك، فراح يقول بصوت محشرج:

_ كيف لا أعفو عن معلمي، كيف لا أعفو عن معلمي؟!

ساد الهرج والمرج للحظات، وامتعض أهل القتيل، سيما أمه التي ترفض الأمر برمّته، فراحت تكيل اللعنات لابنها وكل من وافقه على أمر القودة.

علبة حليب

صوت بكائه الحار اخترق سمعي فأوجع قلبي وأدماه، قمت أتحسس الطريق نحو المطبخ؛ لعلي أجد ما يسد جوعه، علبة الحليب فارغة، لقد اشترى "أحمد" واحدة بالأمس، بحثت عنها، وجدتها بعد عناء، حاولت قراءة تاريخ الصلاحية لكنه غير واضح، لن أعطيه منها، لقد تعلمت الدرس جيدًا..!

دقّت الساعة معلنة منتصف الليل، لكنني أمام صرخاته المتلاحقة ارتديت ملابسي، تسللت حتى لا يشعر بي "أحمد" ويمنعني من الخروج، خرجت التمس متجرًا في هذا الوقت المتأخر، حتمًا سأجد أحدهم لا يزال ساهرًا في هذا الجو الصيفي الكئيب.

المتاجر الرابضة تحت البيت قد أوصدت أبوابها، غير أني عزمت ألا أعود فارغة اليدين، عليَّ أن أُشبع جوعه، لا أتحمل سماع صراخه، رزقني الله به بعد صبر سنين، أصبحت بعدها أمّا، فرحت وزوجي كثيرًا، وتخلصنا أخيرًا من (زن) والدته التي تحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة.

شكوت يومًا إلى أمي فقالت:

_اصبري يا ابنتي، ليس لكِ دواء إلا الصبر.

لمحت خيوطًا من النور تُنسج فوق أحد المحال، تهلل وجهي، رحت استحث الخطى نحوها، أمام باب المحل، شردت للحظة:

_ لماذا جئت إلى هنا؟

بادرني البائع قائلًا:

_ أي خدمة يا مدام؟

همس إليه آخر بجواره:

_ إنها المرأة التي تأتي كل ليلة.

أشعر برأسي يدور، أحاول تذكر ما جئت لأجله في هذه الساعة، نعم نعم، تذكرت، جئت لشراء الحليب، يجب أن أقرأ تاريخ الصلاحية جيدًا، أمسكت بواحدة، فحصتها جيدًا.

_ يا الله، لقد خرجت دون نقود..!

أحسست بيد تربت على كتفي، جاءني صوته كطوق نجاة:

_ كم مرة سأفزع لفقدكِ؟!

التفتُّ خلفي، ألقيتُ نفسي بين ذراعيه.

_ الحمد لله، جئت في وقتك يا "أحمد"، ليس معي نقودًا، ولا بد من شراء علبة حليب، "مازن" يتضور جوعًا، لا بد أن صرخاته قد أيقظتك..!

أمسك بيدي، واتجهنا ناحية البيت، بعد أن قال بصوت لم يخلُ من الدفء:

_ مرّ عام على رحيله، الموتى لا يجوعون يا حبيبتي، لا ذنب لكِ فيما حدث، لا ذنب لكِ.

كورريكتور

اعتاد كثرة الخطأ أثناء الكتابة،(الكورريكتور) لا يفارق يده، كنت أنهاه عن الإفراط في استخدامه بهذا الشكل.

عندما أرى ابني «سلام» وهو يمحو أخطاء الكتابة بذلك القلم، أتمنى لو أن لنا قلمًا كهذا لأخطاء الواقع التي نغرق فيها يومًا بعد يوم، ونعجز عن مراجعتها.

بدا كل شيء حولي وكأنه يشاطرني الأحزان، ذلك العصفور الذي حُبِسَ في قفصه الصغير ليزين الشرفة، لم يعد يشدو بصوته الجميل، أبت السحب الكثيفة إلا أن تحجب نور القمر؛ فازداد الجو كآبة رغم أنها بداية الربيع، هكذا خُيِّلَ إليّ أن جميع الأشياء من حولي تتفاعل معي، إلا هي..!

لا أذكر أن قطار حياتنا -الذي لم يكمل عشر سنوات بعد- قد مر كثيرًا على محطات السعادة، تزوجنا بعد قصة حب حسدنا عليها كثيرون، لكنها أخذت تنغمس يومًا بعد يوم في شؤون البيت، أخذت الفجوة بيننا طريقها نحو العمق، ما عدت أرى من تلك التي أحببتها إلا بقايا لا تسمن ولا تغني من جوع.

أنظر إليها وقد استغرقت في نوم عميق، فأتذكر حالنا في غابر الأيام، لقد كانت فيما مضى تنتظر رجوعي، فتلقاني بشوق الحبيبة..!

_آه.. أين ذهبت تلك الأيام؟! هل تغيرتُ فلم أعد ذلك الرجل الذي أحبته؟! أم أن جذوة الحب انطفأت مع مرور الأيام وعصف الهموم؟!

لا أدري ما الذي أصاب علاقتنا في مقتل؛ فذهب بريقها؟ لا

أدري متى سنملك شجاعة المواجهة، فنمحو ما نما بيننا من حواجز ومسافات؟ أزعم أني حاولت كثيرًا، لكن لا أدري لماذا فشلت..!

جفّت غصون التواصل بيننا، إلا فيما يخصُّ البيت والأولاد، تركت نفسها بعد إنجاب طفلنا الأول، فما عاد يشغلها سوى الاهتمام بأمور البيت، أذكر حين تحدثت معها -ذات يوم- عن آخر مباراة فاز فيها الفريق الذي أشجعه، فلم تجبني بكلمة، إلا أنني قلت لنفسي يومها:

_من الطبيعي ألا تهتم امرأة بأخبار الرياضة.

لكنني حين عرضت عليها آخر ما كتبت من قصائد، قاطعتني قبل أن أكملها - عندما بدأ المسلسل الذي تتابعه بشغف عجيب:

_ جميلة جميلة، يكفي أن تكون من مكتوبك.

أشعلت سيجارة ورحت أنفث دخانها المختلط بأنينٍ مكتوم، أصبحتُ أسيرًا للتدخين بعد أن كنتُ ناصحًا لأصدقائي بالإقلاع عنه..!

الأسبوع الماضي زرت صديقي الطبيب النفسي المشهور ..

_ أشعر أنني أصبحت مريضًا.

_ المريض لا يُنتِج، وأنت أصدرت ديوانك الأخير منذ أسبوعين، تحتاج فقط لأن تخرج في نزهة، تستعيد بها تركيزك قليلًا.

في الصباح، كنت أستقل القطار متجهًا إلى قريتي الريفية، حيث الخضرة والهدوء، جلس قبالتي شاب وفتاة، نظرت إليهما بأسى، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة وأنا أوجه نظري نحو النافذة:

_البطولة في الاحتفاظ بروعة البدايات..!

في القرية، تتهادى الطبيعة بروائعها، أشجار التين تنشر عبيرها في المكان، وهديل الحمام ينطلق مُصدِرًا سيمفونية ريفية مميزة، بعض الأطفال يفترشون الأرض، يذاكرون دروسهم في هذا الهواء الطلق، تلوّن الشمس وجوههم البريئة.

أيقظني أحدهم من سيل الذكريات الذي يهدر فوق رأسي بلا هوادة:

_ يا عم، لقد أخطأت في كتابة هذه الجملة، أريد أن أمحوها.

أمسكت بكتابه، حاولت أن أمحو ما خطّه، يبدو أن (الكورريكتور) قد جف، وما عاد بإمكانه أن يمحوَ شيئًا، أعطيته إياه، فذهب حيث يجلس بقية الأطفال.

لكنه عاد إليّ بعد دقائق ليقول:

_لقد كتب القلم يا عم، ها قد محوت أخطائي..!

يا مطرة رُخِّي

يا مطـرة رخي رخـي .. رخي على سـطوح بيتنا
لكن إيـــــــاكِ تبـوخي .. بردك على ريش كتاكيتنا
رخـــي رخـــي يا مطرة .. واسـقي شـجرنا وبقرتنا
وابعدي لسعتك الخطرة. .. عن ورايــة في جنينتنا

تـأتيني أصـواتهم عبـر النافـذة حلـوة عذبـة، فتحـرق قلبـي الصـغير الـذي يتـوق إلـى مشـاركتهم اللعب تحت المطر فـي هذا الجو الشتوي البديع، أجلس في غرفة مطلة على الشارع أراقب حبات المطر وهي تغسل أوراق شجرة الصفصاف العتيقة القابعة أمام البيت.

تداعب رائحة المطر أنفي الذي أشعر بازدياد حجمه يومًا بعد يوم، كما يزداد معه قبح وجهي، وملامحي المُنفّرة.

_ لقد خفّ المطر قليلًا يـا بنـي، اخـرج لتلعب مـع الأولاد أمـام البيت.

_مراقبة المنظر من هنا أجمل يا أمي.

يستمر صوت الأطفال أمام البيت وقد بدأوا يلعبون الكرة، تنـازعني نفسـي أن أخـرج إلـيهم، بينمـا جـزء منـي يصـرخ فـيّ محذرًا «إياك أن تفعل» قررت الخروج إلا أنني تذكرتُ يوم كنتُ في فناء المدرسة في اليوم الرياضي، أراقص الكرة وأتقاذفها بين قدميّ، فرآني أحدهم وكان قد دُعي إلى مدرستنا في هذا اليوم، تقدم نحوي متحمسًا، يلوح بيديه تشجيعًا لما رأى من مهارة طفل في العاشرة، لكن ما إن اقترب مني وملأ عيونه من

قبح وجهي حتي هدأ تشجيعه وفَتُرَ حماسه، اكتفى بوضع يده على رأسي بحركات عبثية كأنما يمسح على رأس يتيم، وانصرف دونما تعليق..!

تذكرت أيضًا يوم عودتنا من بيت جدي بالقطار، كانت زيارة سريعة، اعتادت أمي القيام بها كل شهر؛ لتصل رحمها، انطلق صوت بائع الحلوى مرغِّبًا في سلعته، نظرتُ إلى أمي فأعطتني جنيهًا تقدمت به نحو البائع الذي أطال النظر إليّ وهو يعطيني ما طلبت، انطلقت راجعًا حيث تجلس أمي، فظهر أمامي شاب ما إن وقعت عينه عليّ حتى قال متأففًا:

_ أعوذ بالله ..

بينما قال رجل طاعن في السن ناصحًا إياه -بصوت ثقب أذني-، وهو يتجنب النظر إليّ:

_لا تقل كذلك يا بني، بل قل الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري.

عدت إلى مقعدي، وحديثهما يتردد في أذني كطنين نحلة لا ينقطع.

نفضتُ عن ذاكرتي تلك المشاهد التي تتغذّى على روحي، لقد اشتد المطر مرة أخرى، خرجت من الغرفة بخطوات متثاقلة، أمي في صحن الدار تحيك قميصًا لطفلها الرضيع الذي تضعه على سرير خشبي بجوارها، لقد كان رضيعها أحسن حظًا مني، يوم أن رزقها الله به فرحت جدتي وتهلّل وجهها، قالت وهي تنظر إليّ بحزن وأسى:

_هذا عوض الله لكم..!

التصقت بباب الدار، نظرت من ثقبه أراقب الأولاد وهم يلعبون، بيد مرتجفة أمسكت مقبض الباب الخشبي الذي أكلته الشمس، أدرته ببطء، صنعت فتحة صغيرة أتطلع بها للخارج، اتسعت شيئًا فشيئًا، رآني أحدهم، فقال ساخرًا:

_ها قد جاء وجه البومة، الآن سيكف المطر عن السقوط.

انسحب الأولاد عائدين إلى بيوتهم خوفًا من أن ينالهم شؤم وجه البومة، رحت ألعب وحدي تحت شجرة الصفصاف، أستمتع بالمطر، وأغني بصوت مبحوح ..

يا مطرة رخي رخي .. رخي على سطح قلوبنا
رخي رخي يا مطرة .. نضفي بطهرك توبنا
يا مطرة رخي رخي .. امحي عيوبنا ودمعتنا

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي..!

في طريقي إلى العمل كنت أكمل حظي من النوم، فلم أنم ليلة أمس بسبب مشادة مع زوجتي العزيزة، عنَّفتني خلالها لأنني لا أملك فائضًا يمكنها من شراء الفستان الذي ذهب بريقه بما تبقى من عقلها، بينما اشترت صديقتها كل ما أثار جنونها، هي لا تريد أن تفهم أن بيني وبين زوج صديقتها تلك ما بين السماء والأرض.

_ لقد كان معي على المقعد نفسه، غير أن حظه في التعليم كان قليلًا، بعكس زوجك.

ردت بلهجة لم تخلُ من الفخر بزوجها:

_ دا من حظي الهباب..

أجمل ما في زوجتي ألفاظها المبتكرة، تثري معجمي دائمًا، تزيده كل يوم ألقًا على ألق، أكثر ما أخشاه أن تنقل (فيروسات) لسانها إلى ألسن بناتها الأربع.

_ آه .. تحزن البلهاء لأجل فستان..! قلتها بقلب احترق هَمًّا.

راقتني تلك الجملة، تصلح لأن تكون (تيمة) لرواية جديدة، بل لتكن قصة قصيرة، فروايتي الأخيرة لا تزال نُسخها نائمة على رفوف مكتبتي، تشكو خيوط العنكبوت الذي سكنها بعد أن أصبحت أتناسى إزالة التراب عنها، فأقام حفلًا على أغلفتها، لم أفقد منها سوى النسخ التي أهديتها للأحبة والصحاب، لتكن إذًا

قصة قصيرة أو قصيرة جدًا، أنشرها على (الفيس بوك) ستنال إعجاب الأصدقاء، وتنهال عليها المشاركات خاصة من أولئك الذين يكيلون السّباب للنساء على صفحاتهم ليل نهار، يعالجون مأساة واقعهم في عالمهم الافتراضي.

حاولت غير مرة أن أحلق خارج هذا الوطن الذي لا أستطيع العيش بعيدًا عن أسواره؛ بحثًا عن فرصة تستحق، ربما أجد مكانًا يقدّرني، آخر محاولة كانت هذا العام، ضحك الحظ في وجوه بعض زملائي، لكنه أبى معي إلا العبوس، أحبني هذا البلد كما أحببته، لكن بطريقته..!

وصلت أخيرًا إلى مكان عملي الذي يقتات على ما تبقى منّي ..

_ تأخرت ليه يا أستاذ فرحات.

قالها العامل، وهو يفتح باب المدرسة بشموخ، وكأنه يفتح باب الوزارة.

_ يا فتاح يا عليم، ما هذه الجلبة؟

_ شكوى من الأستاذ محمود.

في مكتب المدير، يقف أحد أولياء الأمور مستندًا على عصاه ريثما يفكر في استخدامها، وإلى جواره يقف ابنه منتفخًا وكأنما أحضر الشرطة، المدير يبرر ويعلل في بلاهة ممقوتة، و "محمود" يتحدث بالمنطق مع من لا يعرفون للمنطق معنى،

نظرت إلى المدير نظرة يعرفها تمامًا، خرجت بعدها من المكتب حتى لا أشتبك مع ولي الأمر، أو أهدر هيبة المدير أمامه.

****

_ كم مرة نصحتك، تصرُّ على جلب المتاعب لنفسك..!

_ فقط عنّفته لأنه أساء الأدب عندما سألته عن التكليف الذي طلبته منهم. أجابني بضيق.

_فالح .. عنّفه كل يوم يا محمود.

أتفهمه رغم عناده، لا يزال شابًا متحمسًا للعمل، لم تأكل الهموم رأسه بعد، غدًا تعتدل مقادير الأشياء في عينيه.

في الفصل، جلس طلابي في انتظار معلمهم المتأخر، يحرص بعضهم على أن ينادوني (دكتور)، لا يعلمون أن هذا اللقب يذكرني بالخطيئة التي ارتكبتها منذ سنوات.

درس اليوم نص عنا "حافظ إبراهيم"، كم ذا يكابد عاشق ويلاقي، ما إن وصلت لقول حافظ:

والناس هذا حظه مال وذا علم وذاك مكارم الأخلاق

انتبهت وكأنني اقرأ البيت لأول مرة، استغرقت في ضحك هستيري، استحال ذهولًا عندما تخيلت أن "حافظًا" يقف أمامي قائلًا:

_ قد أخذت حظك من هذه الحياة يا دكتور..!

بائعة الخبز

في ذلك البيت المتطرف على حدود تلك القرية النائية، تعيش (حُسْن) مذ أدركت معنى الحياة وتعبها، ورثت عن أبويها هذا البيت البسيط، كما ورثت عنهما الوحدة والحزن ونفور الناس.

«ينفر الناس من كل ضعيف مجهول الهوية والأصل، يعتبرونه نكرة لا يستحق الحياة» هكذا كانت تقول أمها.

تعيش في منطقة منبوذة، الجيران إمّا لص مناور أو شرير مخادع لا يدرك لغضب الله معنى؛ لذا يكره أهل القرية تلك المنطقة التي تجمَّع فيها الناس من كل حدب وصوب فاستوطنوها، لا تفوح هنا سوى رائحة السوء، فتبدو (حُسْن) كغزالة ضعيفة شذّت عن القطيع..!

تصنع الخبز -الذي ورثت طريقة إعداده عن أمها- وتخرج في الصباح؛ لتجلس به على إحدى النواصي حيث يتجمع الباعة، تظل هناك حتى تأكل الشمس رأسها، ويستحيل وجهها الأبيض أحمرًا، فتبدو تلك الفتاة بعينيها الخضراوين وشعرها الأصفر الذي تطلّ بعض خصلاته ثائرة خارج طرحتها الزرقاء التي تلقيها فوق رأسها، وقد ارتدت عباءة استحال لونها الأسود لونًا آخرَ، غير أن هندامها هذا لم يُخْفِ شيئًا من جمالها الذي كان يسيل له لعاب اللئام ومرضى القلوب.

"سالم" -أحد سكان تلك المنطقة المنبوذة- رجل سيء لم يدع ذنبًا إلا اقترفه، يحيا بالبلطجة على خلق الله، متزوج ولديه أبناء

لا يعلم عددهم ولا أرضهم، يرى (حُسْنا) فيزداد نداء الحيوان داخله، طلبها للزواج في حياة أمها -بعدما يئِس من النيل منها-؛ فرفضته، ثم تصوّر أنها حين صارت وحيدة، سترضخ، ولما خاب ظنه، ازداد غيظًا على غيظ.

وإذا كان ربُّ البيت بالفحش سائرًا بين الخلق، فَشِيَم أهل البيت لن تختلف كثيرًا عنه، كان لسالم زوجة لا تقل سوءًا عنه، بعدما رأت رغبة زوجها في (حُسْن) اشتعلت نيران الحقد في صدرها، حاولت أن تتخلص منها بشتّى السُبُل إلا أن انعزال (حُسْن) وانصرافها عن الجيران وما عندهم، صعّب عليها تلك المهمة، فكلّما دبَّرت لها مكيدة نجت منها (حُسْن) التي تدعو الله ليل نهار أن يحفظها من أذى هؤلاء الجيران الذين لا يرقبون في أحد إلًّا ولا ذمة!

كان(عامر) شابًّا مكافحًا، يبيع الخضروات متجولًا في شوارع القرية، يخرج - كل يوم - ببضاعته في الصباح الباكر، يرى (حُسْنا) فيذوب قلبه حبًّا، ويزداد بها تعلقًا، غير أنها لا تشعر به كما لا تشعر بغيره، وكأن قلبها الغضّ قد جفَّ فما عاد ينبض، كان منتهى أمله أن يُعْطَى من الشجاعة ما يمكّنه من الوقوف أمامها معترفًا بمشاعره، هو يريدها زوجة وملكة متوجة على عرش قلبه الفقير، يريد أن يحمل عنها ما تلاقيه من عناء السعي وراء لقمة العيش، غير أن هذا العناء نفسه كان سبب حبه لها ورمز جمالها في عينيه.

خرجت حسن -ذات يوم- في طريقها إلى المكان الذي تبيع فيه سلعتها، فاعترض (سالم) طريقها، حاولت تجاهله إلا أنه تطاول وزاد في جهالته، فما كان منها إلا أن خلعت حذاءها وانهالت عليه بالضرب، تجمع الناس، لكنهم انقسموا بين لائم للرجل، يسبّ فعله، وبين متحامل على الفتاة متهم لها بالمشي (البطّال) وكيد النساء، أخذت خبزها ومضت في طريقها، تلعن "سالمًا" وكل من ظن فيها السوء.

تغيّر موقف (سالم) بعد نزول حذاء (حسن) على رأسه، هو يرى أنها نالت من رجولته أمام الناس؛ فقرر أن يلقّنها درسًا لا تنساه، بدأ يحثّ زوجته على إيذاء (حُسْن) متهمًا لها بمحاولة إغرائه وحمْله على الزواج منها، فبدأت الزوجة الحمقاء في إيذاء الفتاة المسكينة حتى ضيَّقت عليها كل واسع فباتت لا تفكر إلا في بيع البيت، والرحيل من هذا المكان، لكن.. إلى أين؟!

انقطعت عن الخروج، مكثت في البيت أيامًا بسبب ما يفعله ذلك الرجل وزوجته من إهانة وإيذاء، فقلق (عامر)، ماذا أصاب الفتاة؟ هو يعرف مكان سكنها، لكنه متردد في الذهاب للسؤال عنها، لا يعلم كيف ستستقبل الأمر، مر أسبوع كامل لم يرها خلاله، لم يستطع الانتظار أكثر، سيذهب للسؤال عنها وليكن ما يكون بعد ذلك.

انطلق (عامر) قاصدًا بيت (حُسْن)، ما إن وصل تلك المنطقة المتطرفة في آخر القرية حتى بدأ يسأل عن (حُسْن) بائعة الخبز، فوجد من دلّه على بيتها، وصل إلى هناك، تعجبت حين رأته، ثم

شكرت له اهتمامه وسؤاله، واعتذرت عن استقباله، فقبل عذرها وهمّ بالرحيل، غير أن (سالمًا) الذي كان يراقبه مذ دخل الشارع، وجد أن ساعة الانتقام قد حانت، فراح ينادي في الناس:

_ انظروا إلى هذه الفتاة اللعوب، ها هي تستضيف الرجال في بيتها نهارًا دون حياء، ها هي التي تدّعي الطهر والنقاء..!

تجمّع الناس وكَثُرَ المتفرّجون، وجدت الفتاة نفسها بين عشيّة وضحاها في دائرة الاتهام، حتى أولئك الذين يعترفون -بين أنفسهم- بنقائها شاركوا في التقوّل عليها، مرددين كالببغاء (اللي تحسبه موسى يطلع فرعون) فلم تجد حُسْن بُدًّا من ترك تلك القرية الظالم أهلها.

في مكتب البريد

اشتد ازدحام المكان، فازداد معه الشعور بحرارة الجو في هذا الطقس الصيفي القاسي، تجلس (سها) -التي ترتدي معطفًا أبيض وبنطالًا أسود -، وقد اعتراها الضجر، كان اليوم طويلًا شاقًا، كادت تسمع صراخ معدتها من شدة الجوع، في يدها نظارة شمس وفي الأخرى بطاقة تحمل رقمًا تنتظر سماعه بفارغ صبر ..

_بطاقة رقم ... شباك رقم ....

يتكرر هذا النداء بين الحين والآخر، غير أن رقمها لم يَحِنْ دوره بعد، أخرجت هاتفها لعلها تقتل الوقت بشيء مفيد أو غير مفيد، تصفحت الهاتف بشكل عشوائي، لكن سرعان ما تسلل الملل إلى روحها المنهكة، فأخذت تتفرس الوجوه حولها، يكتظ المكان بالعملاء على اختلاف طبقاتهم، تتعالى الأصوات، فتختلط بضجيج الشارع، لفت انتباهها شاب وسيم يجلس قبالتها يرتدي قميصًا رماديًا وبنطالًا أزرق، تلاقت عيناها بعينيه الخضراوين، فحولت نظرها سريعًا، لكنه ظل ينظر إليها بشغف شديد، ازداد اضطرابها واحمرّت وجنتاها، حاولت أن تتشاغل بالنظر إلى الهاتف تارة والعبث بالحقيبة تارة أخرى؛ لعل الاضطراب يزول قليلًا، ثم اختلست النظر إليه، فإذا به لا زال ينظر إليها، فتزداد دقات قلبها، ويتصبّب العرق كحبات اللؤلؤ من جبينها الأبيض المقوس، وهي تضغط بشدة على كفيها الرقيقتين، وقد غرقت البطاقة في عرق الحر والارتباك..!

كانت نظراته تحمل من معاني الشغف واللهفة ما جعلها تسأل نفسها:

_تُرى هل يعرفني هذا الشاب، لكن هذه أول مرة أرى فيها هذا الوجه الطفولي البريء.

قطع حبل تساؤلاتها صوت امرأة قاربت شمس عمرها على الغروب، بصحبتها طفلة، تتثاءب في كسل وقد غازل النعاس عينيها، ترتدي ثوبًا قديمًا مهترئًا، وقفت المرأة أمامها في ذل وانكسار قائلة:

_ شيء لله يا بنتي..

اكفهرّ وجه (سها) ثم أشاحت بيدها في وجه المرأة التي ولّت ولم تعقّب.

تكرّر التقاء العينين مرات عديدة، وكان قلبها يدقّ بشدة في كل مرة، بادلته النظر بعينيها الناعستين وقد ملك عليها حسّها، فبدأت العيون في حياكة خيوط من الألفة، انتظمت دقات قلبها وكأنه انسجم مع تلك النظرات، حتى نسيت معدتها أمر الطعام، وتبخر ضجر الانتظار..!

لكنها انتبهت -فجأة- لتكتشف غياب الهاتف، بحثت عنه في الحقيبة، لكن لا أثر له.

_ كيف اختفى الهاتف من بين يديّ هكذا دون أن أشعر، ألهذا الحد فقدت التركيز؟!

ذعرت، وقفت في مكانها، بدأت تبحث خلف الكرسي وأسفله، يمينًا ويسارًا، لا أثر هنا للهاتف، سألت عجوزًا يجلس بجوارها لكنه نفى رؤية أي هاتف، ثم نظرت إلى الشاب صاحب العينين الخضراوين، وقد احتضن الحزن قلبها، لقد كان يواصل النظر إليها بعينين متسائلتين، فإذا بها تصرخ وتستغيث في هلع؛ لأن متسولًا قد اختطف حقيبتها، واختفى وسط الزحام، فانتفض

الشاب -ذو العينين الخضراوين- واقفًا، تردد قليلًا قبل أن يندفع نحوها، لتسمع صوته لأول مرة منذ أن جلسا:

_ اهدئي.. اهدئي، سأتولى الأمر.

فأطلق الشاب ساقيه للريح يقتفي أثر ذلك المتشرد، بعد أن ودّعها بنظرة خاطفة حُبلى بمعانٍ عدة.

في ذلك البيت المهجور الذي خاصمه النور، وأقامت فيه القمامة حفلًا جماعيًا، كان المتسول يفرغ محتويات الحقيبة، ويحسب قيمتها بصوت عال، وهو ينظر إلى ذلك الذي دخل وقد تصبب العرق من جبينه، فارتمى على الأرض؛ يلتقط أنفاسه.

_ ساعة يد ذهبية فاخرة، ومحفظة عامرة بالنقود، هذا غير الهاتف، إنه من نوع يعجبك كثيرًا..

كان المتسوّل يوجه حديثه إلى شريكه في هذه الجريمة.. نعم إنّه الشاب المخادع .. صاحب العينين الخضراوين...!

هنا.. كانت قريتي..!

جئت إليها زائرًا بعد عشرين عامًا من الغربة، تبدلت أحوالها كثيرًا، استحالت خضرتها رمادًا لوّث فضاءها، لم يبقَ منها سوى اسمها.

كنّا أطفالًا، تنحصرُ دنيانا الصغيرة بين البيت وحقول القمح المترامية حوله -اختفت اليوم وارتفعت مكانها بناية من عدة طوابق- كانت آخر ما تدركه حواسنا ساقية تقع على بُعد أمتار من الجسر، كنا نخشى الاقتراب منها كثيرًا، فالحكايات التي نسمعها عنها وعن ذلك الجنّيّ الذي يسكنها كانت قادرة على إخافتنا، أما الحديث عنها فكان بين القلائل ممن نصفهم بالشجاعة.

نخرج في الصباح الباكر حيث أشجار النخيل المتناثرة حول حقول البرسيم؛ نجمع البلح الأخضر اللذيذ الذي يسقط ليلًا، وما أجمل نسيم الصَّباح حين يداعب أنوفنا في هذا الجو البديع، يزيد من جماله تلك الخضرة حولنا تكسوها قطرات الندى فتبدو كحبات اللؤلؤ، نرجع إلى البيت وكل منا يتباهى بما جمع من البلح..!

لا نلبث أن نعود للجري واللعب وسط سنابل القمح التي تبدو كمروج الذهب يغازلها نسيم الهواء، وتتراقص أزهار البرسيم الحجازي بألوانها المختلفة، نتسلى بصيد حشرة اليعسوب بألوانها الزاهية وأجنحتها الشفافة، ما إن تحط على الأغصان حتى نتحيّن الفرص لصيدها، كصياد ينصب فخًّا؛ ليوقع بصيد ثمين

كنا كذلك دائمًا، لا يصرفنا عن اللعب والاستمتاع بجمال الطبيعة إلا رؤية الرجل المجذوب أو سماع صوته، رغم أنه لا يؤذي أحدًا، إلا أن هيئته كانت كفيلة بأن تجعلنا نلوذ بالفرار عند رؤيته، كان ذلك الرجل طويلًا نحيفًا، أسمر البشرة طويل الشعر، حافي القدمين، رثّ الثياب، ونراه أحيانًا بلا ثياب يهيم عريانًا في صيف كان أو شتاء!

أذكر يوم كنا تحت شجرة السدر العتيقة، نجمع النبق، ما إن سمعناه يصيح بعباراته التي حفظناها جيدًا، حتى لاذ الجميع بالفرار، أطلقت ساقيّ للريح، وقلبي الصغير يذوب حسرة على كيس النبق الذي تركته بعد أن امتلأ لآخره!

حكت لنا أمي -ذات يوم- عن ذلك المجذوب، الذي كان رجلًا ثريًّا مسموعَ الكلمة، إلا أن هروب زوجته مع أحد أقاربه بعد سرقته قد أطاح بعقله، فتراه هائمًا على وجهه طوال اليوم، لا يكاد يستقر في مكان، طالما عطف عليه أبي، قائلًا : «أكرموا عزيز قوم ذل» أراه حين يمر ببيتنا وأبي جالسًا على (دكّة) أمام البيت، يشرب شاي العصاري مع بعض رفاقه، فيجلسه ويعطيه كوبًا من الشاي، كان الرجل يهوى به إلى جوفه ساخنًا، فأنظر إلى فعلته تلك وأنا فاغر الفم محملق العينين، وقد علت قهقهة أبي ورفاقه، وهم يعلقون على فعل الرجل.

كنت في وقت الظهيرة مع رفاقي تحت شجرة السنط نجمع القرظ الذي نبيعه في سوق القرية الأسبوعي، فترامى إلى أسماعنا حديث الناس عن اختفاء المجذوب، حتى تلك العُشَّة التي يأوي إليها مساءً، لا أثر له فيها.

أين ذهب الرجل..؟! ليس له مأوىً آخر، وإن كان قد مات، فأين جثته؟

انتشر الهلع بين أهل القرية، وبدأ خوفهم على صغارهم يزداد، ثم شرع الناس في نسج القصص واختلاق الحكايات حول هذا الأمر، فاليوم نسمع أن الرجل غرق في الساقية المسكونة؛ حيث كان كثير التردد عليها، وغدا يميل البعض إلى الخرافة قليلًا، فنسمع أنه تحول إلى كائن آخر، أو انتقل بكراماته إلى قطر آخر.

كانت الشمس تلملم أشعتها عندما كنا نمرح تحت شجرة السدر العتيقة، فإذا بأعداد من الرجال يهرولون ناحية الجسر الغربي، جرى الرجال وتبعهم الصبية، وجريت مع الجميع حتى إذا وصلنا هناك، رأينا مشهدًا لا يزال محفورًا في ذاكرتي ولا أظنه مفارقها، رأينا جِوالًا من الخيش وضعت فوقه بقايا رجل بُقرت بطنه، وأُخرجت أعضاؤه، فبدت الجثة كهيكل ماثل أمامنا، وجدها أحد الفلاحين ملقاة في أرضه وسط أعواد القصب، إنها جثة المجذوب الذي اختفى منذ أيام.

لا أدري ما الذي ذكرني بقصة ذلك المجذوب تحديدًا؟ لكن ربما لأن قتله كان بداية التغيير الذي أصابت لعنته نقاء قريتي..!

بيت العنكبوت

_ هل في الحديث معكِ يكمن الشفاء حقًا؟

_ ربما، جربي، ماذا ستخسرين؟!

قالت بعد لحظات من الصمت:

_ حسنًا، من أين أبدأ..؟!

_ كما يحلو لكِ..

أغمضت (حنان) عينيها، واسترخت على ذلك الكرسي، وتركت نفسها لأول مرة ..

كنتُ في عامي الجامعي الأخير، أعمل في ذات الوقت (كاشير) في (هايبر ماركت) لا يبعد كثيرًا عن بيتنا، أمي غارقة طوال الوقت في أعمالها وأموالها، وأبي هاجر منذ أكثر من عشر سنوات، لا زالت بقايا ذكرياتي معه تقيم عزاءً في قلبي، كانت أمي تراوغ كلما سألتها عن سبب هجره لنا، حتى أصبحت لا أسأل، ولم يعد يهمني أن أعرف..!

لا يشغل تفكيري سوى (طارق) أخي الطالب المتفوق في الثانوية العامة، لا أريد أن يصبح مثلي، كنت أقول لنفسي: «يكفي هذا البيت مشوّه نفسيّ واحد»، كانت أمي تعطي (طارقًا) المال دون حساب؛ لذا كان شجارنا لا ينتهي.

كنت أقابل ذلك الذي أجد في رؤيته متنفسًا لي، (سامي) زميل الجامعة الذي تقدم لخطبتي لكن أمي التي لا تعرف لغة إلا المال رفضته، ينجح دائمًا في امتصاص غضبي، حتى قال لي ذات يوم:

_ لا بد من إنهاء خلافاتك مع أمك.

_ أنت تعرف وجهة نظري، لا أريد أن يضيع طارق..!
_ إنه ابنها أيضًا، فكّري في قبول العمل معها، ربما وقتها تقل الخلافات بينكما.

تحدثنا كثيرًا في هذا الأمر، وبدا لي أنه اقتنع بوجهة نظري، تكررت منه بعد ذلك مواقف غريبة، لكنني لا أريد أن أكرهه، أو إن شئتِ فقولي: أريد -ولو كذبًا- أن أعيش قصة حب، أخرج بها من واقع يقبض على أنفاسي!

_ ما أخبار المذاكرة يا بطل؟
_ يتوجب عليكِ من الآن أن تناديني "دكتور طارق".
_ هذه أمنيتي الوحيدة يا دكتور طارق.

أحاول دائمًا أن أكون له الصديقة قبل الأخت، كان يبدو لي أنني نجحت بشكل ما، حتى دخلت عليه الغرفة -ذات مساء- يجلس على مكتبه، وأمامه عصير الفراولة الذي يحبه كثيرًا.. طرقت الباب ودخلت -كعادتي- فإذا به يرتبك ارتباكًا شديدًا حتى سقط الهاتف من يده.

_ من ذا يشغل عقل طبيبي؟!
_ هو .. أقصد .. هذا أحمد يخبرني بإلغاء درس الكيمياء غدًا.
_ إذا لنجعل نزهتنا الأسبوعية غدا عوضًا عن الجمعة، ما رأيك..؟!
_ لا .. لا غدًا ولا الجمعة.
_ لماذا؟!
_ الامتحانات على الأبواب..

أحسست أنه يخفي شيئًا، لكن ما هو؟! لست أدري.

في الصباح انتهزت أول فرصة ودخلت حجرته، قلبتها رأسًا على عقب، لكن لم أعثر على شيء بإمكانه أن يبرر القلق الذي طوّق قلبي.

كان (طارق) محبًّا للطعام، دائمًا يطلب أصنافًا ترهق (دادة عفاف) -المرأة طيبة القلب التي تعمل عندنا منذ زمن-، لكنه أصبح هذه الأيام عازفًا عن الطعام قليلًا، أسأله فيتعلّل بالمذاكرة..!

بدأت ألاحظ شحوب وجهه وتقلّب مزاجه، لم يعد يطيق الجلوس في البيت، يتعلّل بالدروس والمذاكرة مع صديقه (أحمد)، ظل الشك ينازعني، اتصلت بأحد معلميه، فكانت المفاجأة:

_ توقف طارق عن حضور درسه منذ شهر مضى..!

لم أصدق ما سمعت، هاتفته، طلبت منه أن يعود إلى المنزل، سألته بهدوء متصنع:

_ لماذا تركت درس الكيمياء؟ هل ذهبت لمعلم آخر؟!

_ لن.. لن أكمل دراستي، لقد رتبت كل شيء، سأنفذ مشروعًا ناجحًا .. ونسافر أنا وأنت....

فقدتُ السيطرة على أعصابي تمامًا، انفجرتُ في وجهه كبركان ثائر، فتركني وخرج.

عندما علمت أمي بالأمر، لم تغضب كثيرًا، رأت أنه بدأ يفكر بشكل عملي، ولم يفتها أن تُحمِّلني المسؤولية، غير أنني توسَّلتُ إليها، وطلبت منها مجددًا ألا تعطيه مالًا إذا طلب.

مرّ أسبوع كامل.. لا حديث بيننا، حتى قررت أن نخرج في نزهة لنتحدث بعيدًا عن البيت.

_ يجب أن نتحدث، سيعود أخي إلى حضني.. لن يستطيع أحد أن يسلبه مني.

هكذا كنت أقول لنفسي قبل أن تطرق (دادة عفاف) باب حجرتي.

كانت الصدمة كفيلة بأن تقتلني حين أعطتني لفافةً وَجَدَتْها على سرير (طارق) وهي تنظف حجرته صباحًا، مسحوق أبيض كالسكر المطحون غير أن له رائحة غريبة، انطلقت نحو النادي، أهيم على وجهي كالتائهة، قابلت (سامي)، أخرجت اللفافة من حقيبتي، فانتفض واقفًا من مكانه فاغرًا فاه، فجذبته من يده ليجلس، وقد أيقنت من ردة فعله أن هذا لم يكن سوى مخدرات، انهال عليّ بالأسئلة، أخبرته أني وجدتها في غرفة (طارق)، فرأيت في عينيه نظرة كانت كفيلة بأن تجعلني أتركه وأنصرف..!

كانت الساعة الحادية عشرة مساءً، وأنا أطلب من سائق التاكسي أن يسرع، اتصلت (دادة عفاف)؛ لتخبرني أن (طارقًا) يتشاجر مع أمه، وقد علا صراخهما الذي سمعته عبر الهاتف، وصلت إلى المنزل في وقت قياسيّ، كان المشهد صادمًا .. طارق يمسك بسكين يوجهها نحو أمه وهو يصرخ بشدة طالبًا منها أن تعطيه ما يريد، وهي تصرخ في وجهه محاولة إبعاد السكين عنها.

صرخت كالمجنونة بصوت ارتجَّ له البيت، وأنا أجري نحوهما:

_ طارق ..

لكن (طارقًا) لم يعبأ بصراخي، وغرس السكين في صدرها وهو يردد باكيًا:

لم تكن أمي ولو ليوم واحد .. كانت -فقط- مصدرًا للمال!

جففت (حنان) دموعها، وهي تقول بروح محترقة:

_لم يصبح أخي طبيبًا، بل أصبح قاتلًا، ثم أضحى قتيلًا، بفعل السم الذي كان يتعاطاه، أُغتيل حلمي أمام عينيّ وأنا مكتوفة الأيدي، المضحك المبكي أن أبي عاد أخيرًا، هل تعلمين ما الذي أعاده؟! عاد ليرث زوجته، نكاية فيه، بعتُ لنفسي كل أملاكها، نعم أصبحت مزورة، سأتبرع بالمال كله، سأتخلص من تلك اللعنة تمامًا..!

_ اهدئي، لا تتخذي أي قرار الآن، ستأخذين حبة واحدة يوميًا من هذا الدواء، وأراك الأسبوع القادم إن شاء الله.

خرجتْ من عيادة الطبيبة النفسية، تجر أذيال الألم، ما إن وطأت قدماها الدقيقتان أرض الشارع حتي دهستها سيارة كانت في انتظارها مذ دخولها العيادة..!

المتسوِّلتان

امرأة على مشارف الستين، ترتدي عباءة اختفى لونها من كثرة ما يرتع فوق خيوطها من بقع، طرحتها البالية تصرخ طالبةً عتقها، كسرٌ أصاب أحد ذراعيها فالتفّت حوله جبيرة استحال بياضها سوادًا، تقودها طفلة صغيرة لم تكن أحسن حالًا منها، غير أن أسوأ ما فيها أنها أطلقت العنان لأنفها فسالت منه قناتان زادتا من نفور الناس وإعراضهم.

تتنقل بين المارة في المحطة، يرقُّ قلب البعض فيعطيها، ويتغاضى البعض عجزًا أو قصدًا، تمنّيتُ أن تتخطّاني دون أن تطلب مني، لا يملك جيبي العاطل سوى عشرة جنيهات، بالكاد أصل بها إلى البيت، إنها آخر ما تبقى معي مما اقترضت من أمي قبل أسبوع بحثت خلاله عن عمل، حتى ذابت قدماي.

تلك هي المرة العاشرة التي أخرج فيها للبحث عن عمل، أحمل فوق ظهري بكالوريوس التجارة الذي أفخر به كثيرًا، بينما أعود في كل مرة بالوجه الذي خرجت به.

حدث ما خشيته، وقفت تلك المتسوّلة أمامي، شرعت في ترديد سلسلة من الأدعية التي تحفظها جيدًا، أعطيتها الجنيهات العشرة، بعد أن قررت الذهاب إلى البيت سيرًا على أقدامي الذائبة.

فضول لا أدري مصدره دفعني إلى السير خلفهما، ومراقبة تحركاتهما باهتمام، ربما شفقة خفية على تلك الطفلة التي تقطع المسافات بصبر عجيب حيّر قدميها الصغيرتين، وهي تجعل من يدها عكازًا لرفيقتها العجوز.

جابا شارع المحطة بأكمله، وكذا الشوارع المجاورة، جمعا مبلغًا ليس بالقليل، مع إهانات لا بأس بها، تعرّض لهما أحد المارة -حين استعطفاه بشكل أثار حفيظته-؛ فاشبعهما سبابًا كاد يتحول إلى اشتباك بالأيدي، سارعتُ بالتدخل، لكن سبقني أحد الواقفين وأنهى الموقف.

_ أيّ رجل ذلك الذي يعول هاتين، يتركهما هكذا للإهانة والإذلال؟!

بعد جولة استمرت ساعة كاملة، لا يزال الفضول مسيطرًا عليّ، دخلتا إحدى العمارات التي أعرفها جيدًا، إنها العمارة التي يقطن بها صديقي (سمير) لم أره منذ أسبوعين، لعلها فرصة، ولجت باب العمارة، في المصعد اجتمع ثلاثتنا، الصغيرة تمسك بكيس وضعت فيه ما جمعت من نقود، انكبت عليه تحسب قيمتها، والمرأة تحرك ذراعها الملتف بالجبيرة بشكل طبيعي كأن كسرًا لم يلمّ به..!

في الطابق الخامس حيث تقع شقة صديقي، خرجت المتسولتان من المصعد، تبعتهما، وقفتا أمام إحدى الشقق المقابلة لشقة (سمير)، تبحث الصغيرة عن شيء في الكيس الذي تحمله.

أمام شقة (سمير) كاد الفضول يقتلني، سألته عن تلك المرأة وصغيرتها، فقال:

_ هذه الحاجة (سكينة) صاحبة العمارة وحفيدتها.

وقفت مندهشًا، ألعن شهادتي، وأتحسر على جنيهاتي العشر.

الغريم الذي أحببته

تمنيت كثيرًا أن أحظى عندها بما يحظى به (بودي)، يفوز باهتمامها وينجح في استثارة عاطفتها، بل إنه يلتهم تلك السويعات التي تقضيها في البيت بعد أن تملّ التسوّق والجلسة في النادي مع صديقاتها اللائي لا تشبع من مجالستهن.

كنت دائم البحث عن ذلك السر الذي يميزه عني، فيجعل أمي تصحبه أينما ذهبت، بل إنه كثيرًا ما ينام معها في غرفتها، بينما توكل أمري إلى تلك الخادمة التي ترطن بلغة لا أفهمها، بعد سفر أبي منذ عامين إلى إحدى دول الخليج؛ ليوفر لنا مستوى معيشي نُحسد عليه، هجرت أمي بيتنا إلا قليلًا، فسكنه البؤس، هل تلك مدعاة للحسد؟ لست أدري..

غيرتي من (بودي) تزداد يومًا بعد يوم، حتى أنني فكرت غير مرة في التخلص منه، رغم أنني أحبه أحيانًا، يهرع نحوي دائمًا عندما يراني، كثيرًا ما يشاركني اللعب، سأغتنم الفرصة يومًا وأقضي عليه، لكن كيف؟!

قضيت أيامًا أفكر في حيلة تخلصني من ذلك الغريم، هل أغرقه في حمام السباحة على غفلة من أمي؟ سيُكشف أمري لا محالة، هل أشتري سُمًّا أضعه في طعامه ليلًا دون أن يدري أحد؟ لكنني لا أعرف من أين يُشترى ذلك السم، سأستعين بصديقي (إبراهيم) إنه حتمًا يعرف تلك الأماكن، سأفعل غدًا أثناء عودتنا من المدرسة..!

في اليوم التالي نفذت أول خطوة في طريق الانتقام، اشتريت السم، قال الرجل الذي باعنا إياه إنه سم فعال، يموت من يتناوله

بعد دقائق معدودة، خبأته في حقيبة المدرسة حتى تأتي الفرصة المناسبة.

_ تناولت غداءك يا معاذ؟

غريب أنها تسألني، لم أعتد منها ذلك..!

_ ليس بعد يا أمي.

_ تناول غداءك سريعًا، سنذهب معًا إلى النادي.

لم أصدق نفسي، دائمًا أذهب بصحبة الخادمة، أو مع أصدقائي، فوجئت بعدها أننا سنصطحب (بودي) معنا، تضايقت كثيرًا، لكنني سرعان ما رضيت، إلا أنني اكتشفت هناك أني ما جئت معها إلا لحراسته؛ لأنها انشغلت مع صديقاتها في الإعداد لحفلة ستقام هنا في المساء.

سيكون المساء الأخير لك يا (بودي) بيننا، الليلة فرصة لن تعوّض، ذهبت أمي إلى حفلتها، بقي أن تنام تلك الخادمة الشقراء، سأنفذ خطتي بعناية وحذر.

في غرفة أمي يقبع (بودي)، -ذلك الكلب الجميل الذي أحببته- في الشرفة، نعم إنه ينتظر قدومها، هرع نحوي كعادته، تمسح في قدمي وعبث بساقي، اقتربت منه، نظرت إليه بحب وخوف:

_أعلم أنك تحبني، أنا أيضًا كنت أحبك.

راح يدور حولي بمرحه المعتاد، أخذته خارج الغرفة، حديقة المنزل مكان ممتاز للعشاء الأخير، قدمت له وجبة الانتقام، تناولها دون تردد، ما لبث أن تمدد على الأرض وبدأ ينازع الموت، لمحت في عينيه دمعة خالطت دموعي التي تنحدر

مرتجفة على وجنتيّ، جريت نحو غرفتي، يعتصر قلبي ألمًا وخوفًا مما اقترفت.

صاحت أمي، وانطلقت صرخاتها عند رؤيتها لجثة كلبها المدلل، صحت بصوت مكتوم لم يسمعه غيري، وأنا أنظر إليهما من شرفة غرفتي:

_أنتِ من قتلته يا أمي، لستُ أنا من فعلت.

ولكم في الصديق نجاة...!

قال وهو يلقي بالجريدة على المكتب الخشبي البسيط:

_ أصبحنا نسمع أخبار القتل كما لو كانت إعلانات سلع غذائية..!

_ أضحت الدنيا غابة يا صديقي.

_ زوج قتل زوجته لأنه اكتشف أن أبناءه الثلاثة ليسوا أبناءه.

_ ما أبشع خيانتها، لا بد أنها كانت تكرهه، كيف عاشت معه كل هذا الوقت؟

_ من الخطأ أن نُصدر علي النفس البشرية أحكامًا نهائية، نغتر بميولها وعزوفها لكن لا الميل دليل حب ولا العزوف دليل كراهية، وهكذا تبدي لك الأيام عكس ما تظهره النفوس..!

_آه يا صديقي، محامٍ بدرجة فيلسوف.

(عصام) المحامي الذي فرّ تاركًا أرضه وأهله في الصعيد؛ ليؤسس حياة بعيدة عن نيران الثأر والانتقام، مع زوجته (سعاد) التي تزوجها بعد قصة حب عاشا فصولها بين جدران الجامعة، وكان (كريم) هو ثمرة ذلك الزواج، رغم مهارة (عصام) في مهنته تلك، إلا أنه مغمور في ذلك الحي الشعبي، زبائنه مساكين طيبون كما يصفهم (خيري) صديقه الطبيب، الذي يمتلك عيادة في نفس الحي الشعبي، بالإضافة إلى عيادته الخاصة في ذلك الحي الراقي الذي يقطن فيه، والتي تفوز بجلِّ وقته.

تنمو الصداقة بين المحامي والطبيب، والتي نبتت بذورها مذ كانا في الجامعة، رغم اختلاف ظروف كل منهما، ساعد على ذلك انتقال (عصام) للعيش في القاهرة، فأصبحت الصداقة بين

الأسرتين، رغم اختلاف مستواهما الاجتماعي.

التاسعة صباحًا يُخيل إليك من قسوة شمس يوليو أنها الثانية ظهرًا، فوجئت (سعاد) بزيارة (خيري)، رحَّبت به وفي نفسها حيرة جاهدت في إخفائها، قدّمت له القهوة، سادة كما يُحبها، سألته عن أخبار زوجته (غادة)، شرد قليلًا قبل أن يرد:

_ تزداد الفجوة بيننا يومًا بعد يوم.

_ غادة ودودة وطيبة، أنت ومها كل حياتها.

_ لكنها ليست حياتي، ولم أخترها..!

ارتبكت قليلًا، ثم قالت:

_ ليس كل ما يحدث لنا هو باختيارنا، أحيانًا نكون مضطرين لتقبل الواقع، لكن لا شك أن الرضا بذلك الواقع بإمكانه أن يُضفي عليه بعض الجمال!

_ لا زالت نظرتكِ الفلسفية هذه تسيطر عليكِ، لا زالت روحكِ جميلة وستظل.

انتبهت لتلميحاته، فحاولت إنهاء الحديث، لكنه انفعل فجأة، وقال بعصبية:

_ لا زلتِ تصدينني، حتى بعد أن أثبتت لكِ الأيام سوء اختياركِ..!

وقفت (سعاد) مندهشة، ثم توجهت ناحية الباب، وأشارت إليه بيدها دون أن تتحدث، فهَمَّ بالذهاب -وهو يرمقها بنظرة عتاب حزينة- دون أن ينبس ببنت شفه.

«إذن هو لم ينسَ ما مضى، لم ينسَ رغم علاقته بعصام» حزنت حزنًا شديدًا، لقد أخفت عن زوجها الأمر منذ البداية، لم

تخبره أن (خيري) سبق وفكر في الزواج منها، فماذا ستخبره الآن؟

في شرفة المنزل -التي تزينها (سعاد) بأزهار الريحان العطرة فتبدو مع بساطتها جميلة جذابة-، يجلس (عصام) بعد تناول الغداء، شارد النظر زائغ العينين، تدخل وهي تقول في غنج:

_ وعندك اتنين شاي صعيدي حبر.

_ سلمت يداكِ حبيبتي.

_ هل حدث شيء اليوم في المحكمة؟ تبدو شارد الذهن مذ عودتك..!

_ كانت قضية غريبة، أخذت من الفكر والنفس ما أخذت.

_ المهم أنك أنهيتها ببراعة، يجب أن تعزمنا على العشاء الليلة؛ حتى تغسل عقلك من بقاياها، أقول لمصلحتك.

ضحكا بعذوبة وفي نفس كل منهما أمرٌ يخفيه عن الآخر، أما هو فيخفي ما عرفه من أحد أقاربه اليوم من تطور في أمر الثأر، لقد أصبح معرضًا للقتل في أية لحظة..!

بعد عدة أيام، جاء رجل إلى مكتب (عصام)، قُدّرَ لذلك الرجل أن يراه (خيري)، الذي استطاع بدهائه أن يعلم ما وراء الرجل، فاستيقظت نفسه الأمارة بالسوء.

في العاشرة مساء، كان (عصام) يقود سيارته التي لم ينته من سداد أقساطها بعد، بجانبه زوجته وابنه، عائدين بعد سهرة لطيفة في منزل (خيري)، الذي ظل واجمًا طوال الوقت، تتعالى أصوات الضحكات من أفواه الأسرة الصغيرة السعيدة، تتراقص

ضحكاتهم مع نسمات الهواء الطفيفة، فإذا بإعصار من الرصاص يغتال تلك الضحكات..!

بعد أسبوعين، كان (عصام) جالسًا في تلك الشرفة وسط أزهار الريحان اليابسة فوق كرسي متحرك، و(عم عبده) -الرجل الذي يأتي لخدمته- يسأله إن كان يريد منه شيئًا قبل ذهابه، فسمح له بالانصراف، وانكفأ (عصام) إلى أوراقه الممزوجة بدموع الفقد، يُنَقّحُ قصيدة كان قد كتبها في الصداقة وحب الصديق..!

عقوق

الأيام بين جدرانها قاسية كوحدة مغترب في ليالي الشتاء، منذ أن جاء إلى هنا على يد الشرطة الشهر الماضي وهو يجلس تلك الجلسة البائسة بعد أن يستيقظ من نومه الذي لم يعد يعرف الاستغراق.

لقد أفنى حياته في تربيتهم، حتى جعل من ثلاثتهم الطبيب والمهندس وأستاذة الجامعة، لكنهم أثبتوا له -بعد هذا العمر- أنه لم يحسن التربية، حين حملهم الطمع على الزجِّ به بين جدران المشفى زاعمين فقدانه لقواه العقلية.

_ هل يعقل ذلك يا حاج (عبيد)، يتهمونك بالجنون فقط لأنك أردت أن تتزوج؟!

_ هكذا فعل أبنائي يا دكتور، إلا لو ارتأيت جنابك أنني مجنون بالفعل..!

_ اطمئن، سنقدم للمحكمة ما يؤكد الحقيقة، لا تقلق.

يطمئنه الطبيب، يظن أن همه هو مفارقة هذه الجدران، غير أن همه الأكبر هو خيبة أمله في من حسبهم امتداد ذكره في هذه الحياة، لكن المال الذي جمعه لأجلهم حال بينه وبين قلوبهم.

_ لم يؤلمني ما فعله (عادل وماجد)، لقد اعتدت القسوة منهما، لكن كيف أطاعتهم (سهام)؟! هذا ما يجعل قلبي مرجلًا يغلي.

قابل كثيرًا من المهزومين مثله، رأى ذلك الذي أتى به أهله من أقصى الصعيد، ألقوه هنا في مشفى العاصمة؛ حتى لا يلحق بهم عار إصابته بانفصام الشخصية، رأى أعدادًا من المنسيّين الذين افتقدوا من يسأل عنهم منذ أن وطئت أقدامهم أرض المشفى،

التي أصبحت مأواهم الوحيد.

_ ابقى تعالى زورني يا محمود ما تعملش زي ولادي.

قالها أحد المهزومين الذي نسيه أهله، ولم يتذكره بالزيارة سوي ابن صديق له.

مرت الأيام وتلتها الشهور، ولا خبر يأتي عن خروجه رغم أن الطبيب قد أكد له غير مرة أنها (مسألة وقت).

اعتاد الحياة هنا، عقوق أبنائه الذي لا يعرف له سببًا مُدْيَة تنغرز بقلبه، تمنى أن يراهم ولو لمرة واحدة؛ يخبرهم فيها أنه عدل عن رغبته في الزواج، تلك الرغبة الكاشفة التي أسقطت أقنعتهم.

لم يعد له مهرب سوى النوم، يبثّه قهره وخيبته ويكرمه الأخير بمسكّن يتغلب به على بعض آلامه.

أمل بدا في الأفق، سيخرج من المشفى، وسيُحكم ببطلان دعوى أبنائه، بعد مرور شهور قضاها هنا جاء الطبيب؛ ليزُفَّ له البشرى، غير أن الموت كان أسبق منه إليه..!

سلمى

لا تتعدى المسافة التي قطعتُها بضعة أمتار، لكنها بدت لي وكأنها عشرات الكيلو مترات، يغزو العرق جسمي كله، تتسارع دقات قلبي، بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي، قررت أن أُنهي تلك المعاناة، فألقيت بجسدي المتهالك داخل التاكسي.

_ هل أقتل نفسي كي أبدو كما يريدون؟!

في المساء طلبت مني أمي أن أذهب معها لحضور حفل زفاف إحدى قريباتها، لكنني رفضت فذهبت معها أختي (ملك)، أهرب دائمًا من حضور تلك المناسبات، لا أجني منها سوى المزيد من السخرية والتندر.

«المفترض آخذ نصيبك من البسبوسة، كيف تتحملين نفسك هكذا؟ أنا لو أصبحت بهذا الشكل أنتحر..!»

وغيرها من الجمل التي تجمع بين الهزل المقبول وانعدام الذوق، يقذفونها في وجهي كقنابل تحرق روحي، (سلمى تش تش) اسم اعتادوا على مناداتي به، أُقابل ذلك كله بالضحك، أُسِرُّ حزني في نفسي ولا أبديه لهم.

أختي (ملك) هي التي تشعر بالحرج، تُزعجها سخريتهم، لكنها بدلًا من أن تغضب عليهم، تغضب على أختها..!

_ أصبحنا أضحوكة أمام الناس بسببها.

بعد أن تصبّ جام غضبها في أذن أمي، تأتيني الأخيرة لتفرغ ذلك في رأسي:

_ اعملي ريجيم يا بنتي، حاولي أن تغيري من نفسك.

أجبتها بابتسامتي المعهودة وأنا أمُدُّ يدي بقطعة كنافة نحو فمها:

_ حاضر يا قلب بنتك، خذي قطعة كنافة.
لكنها أشاحت بيدها في وجهي، فسقط الطبق على الأرض، قالت وهي تخرج من غرفتي:
_ من يقبل الارتباط بواحدة بهذا الحجم، أختك الصغيرة خُطبت قبلك..!
ماذا يريد مني هؤلاء، حاولت غير مرة أن أسير على نظام غذائي؛ لأتخلص من نقدهم اللاذع، لكنني لم أفلح أبدًا، ثم أن هذا جسدي لا جسدهم، لماذا ينزعجون؟! نمت ليلتها والدموع تحتضن الوسادة، وتؤنس وحشتي.
قلتُ لنفسي وأنا أراقب جسدي عبر المرآة صباحًا:
_ حسنًا، سأخوض معركة جديدة، ربما أفوز هذه المرة.
بداية سأذهب لعملي دون تناول الإفطار، وهناك لن أملأ بطني بالتسالي التي تملأ حقيبتي، سأخرجها الآن، كذلك لن أتناول الساندويشات التي يجلبها لنا صاحب المحل، سأظل دون طعام حتى ساعة الغداء، ملأني الحماس، عقدت معه صفقة، آمل أن تكون رابحة.
بدأتُ تنفيذ الخطة، وتجاوزت أولى التحديات، في المحل بدأت معمعة البيع والشراء، استعنت بالله على ثقل بعض الزبائن ونظراتهم العارية من الذوق، إحدى الفتيات جاءت لتشتري فستانًا يناسبها، فلم يفتها أن تبدي رأيها في امتلاء جسدي:
_ أذوق الأمرّين في إيجاد ما يناسبني، أين تجدين مقاساتك؟!
ألفظ سخافاتهم كل يوم مع قشور اللب، وأُخرج غضبي على أرغفة الساندويشات..!

قبل ميعاد عودتي إلى المنزل بساعة، أحسست بانتهاء طاقتي، لا أستطيع الوقوف على قدمي الثقيلتين، أشعر بدوار شديد، جلست على كرسي في المحل، راودتني معدتي عن قطعة حلوى في حقيبتي، لكنني لم أشعر بنفسي بعدها إلا وأنا ملقاة على السرير..!

خسرت الصفقة كالعادة، ساءت حالتي النفسية بعد ذلك، فكنت لا أفعل شيئًا سوى الأكل.

تهلّل وجه أمي وهي تخبرني -ذات مساء- بأن خالتي (عزيزة) ستزورنا غدًا وفي يدها عريس جديد، قابلت قولها بوجوم دون تعليق، وكأنها تتحدث عن أمر يهمّ غيري.

جلس بجوار أمه، يرمقني بنظرات متفحصة، وأمه تلوي شفتيها، ثم تفتعل ابتسامة سخيفة، والخالة (عزيزة) تعمل بالجنيهات التي سلبتها من أمي، فتطلق أطنان المديح، تركتهم يكملون جلستهم مع أمي، التي قامت؛ لتجلب فوجًا آخر من أطباق الحلوى زيادة في الترحيب.

_ ما هذا يا خالة، إنها في سن أمي تقريبًا؟

_ شابة صغيرة يا ابني، لكنها سمينة قليلًا.

أضافت أمه:

_ قليلًا، دي وزنك عشر مرات يا عزيزة، باب الشقة ما يدخلها.

لم أتمالك نفسي، انتقمت لها بكلمات لم تخرج من فمي قبل اليوم، أغلقت الباب خلفهم بعنف، وأنا ألعن كل من يعطي نفسه الحق في التعليق على مظهري.

كنت ذات مساء أتجول على (الكورنيش) لعلي أستعيد في هذا الهواء الطلق بعضًا من روحي الضائعة، وقعت عيناي عليها،

نحيفة جدًا إلى الدرجة التي جعلتني أقف مذهولة بضع دقائق قبل أن أقترب منها، يبدو من احمرار عينيها أنها كانت تسامر دموعها، أثارت شفقتي، قلت لها بصوت متردد:

_ هل بإمكاني مساعدتك؟!

أطالت النظر إليّ، وهي تنقل عينيها بين وجهي وجسدي، كعادة كل من يراني لأول مرة، جلست بالقرب منها، أبدو بجانبها كفيل يجاور أرنبًا، تملكني شعور بالضحك، حاولت مقاومته، ولما عرفت منها أنها تتعرض للسخرية ممن حولها؛ لشدة نحافتها، فقدت السيطرة تمامًا وانطلقت في ضحك هستيري جعلها تتركني غاضبة، جريت خلفها، قلت بصوت أسمعه لأول مرة:

_عيشي حياتك كما تريدين ولا تلتفتي.

نظرات لن تُمحى

لا يزال الحزن يسكن عينيه، يحتضن نظراته كصديق حميم لا يفارقها، رغم مرور كل تلك السنوات، لا تزال ذاكرتي -أيضًا- تختزن تلك الأيام التي لن تُنسى..!

تبعثر إخوتي في زوايا البيت، حتى أخي الرضيع غفلت عنه أمي اليوم، وأوكلت أمره إلى أختي ذات العشرة عقود، لقد امتلأ بيتنا بالأقارب والجيران، اشتكت قدماي من عدد المرات التي ذهبت فيها بأكواب الشاي إلى أبي ومن معه، حول أمي وجدتي تحلقت النساء المُتَّشحات بالسواد، بعد أن بكت كل منهن همها، تبادلن أطراف الحديث كالجالسين في مقهى، سمعتُ إحداهن تهمس إلى الأخرى وقد وضعت منديلًا على فمها:

_ يقولون إن الرجل مات بالوباء المنتشر هذه الأيام..!

فردّت الأخرى عليها، وقد وضعت طرف طرحتها على فمها:

_ لا بد من قضاء الواجب، ماذا سنفعل..؟!

ثم أدلت ثالثة بدلوها في الحديث قائلة:

_ ما حزن عليه أهله، التركة تُنسي الحزن يا حبيبة.

انفضّ الجمع أخيرًا، وبدأ البيت يتنفس الصعداء بعد انتهاء مراسم العزاء، انتقل جدي -بعد أن التهم الوباء جسده- إلى مثواه الأخير دون أن يودّعه أحد، لم يلازمه في فترة مرضه بالقاهرة سوى(علي) أخي الأكبر الذي سيصبح طبيبًا بعد أيام قلائل.

وقبل أن تنطفئ نار الحزن في بيتنا، اشتعلت نار أخرى عندما طالبت عماتي بنصيبهن في تركة جدي، ماطل أبي في البداية، ثم

كشف عن نواياه، فبدأ مسلسل النزاع والخصام.

خاصم أبناء عماتي بيتنا، حُرمت من رؤيتهم واللعب معهم، كما حُرمت جدتي التي رأيت دموعها لأول مرة عندما كانت تتحدث مع أبي ذات مساء:

_ لا تعادي أخواتك يا ولدي، لا تأكل حقهن.

_ لا حق لهن عندي، أنا من حافظت على تلك الأرض ورويتها بعرقي، إن شئن أعطيتهن ما يعادل نصيبهن مالًا.

_ خاف الله يا بني.

لكن أبي أشاح بيديه، وتركها دون تعليق.

لم يفلح أحد في إقناع أبي بإعطاء الحق لأصحابه، حاول كثيرون أن يكونوا وسطاء خير في لمّ شعث الإخوة، غير أن طمع والدي حال دون ذلك، حاول أخي (علي) مع أبي كثيرًا في هذا الأمر.

_ هل علمتك؛ لتعدّل على أبيك..؟

_ العفو يا أبي، لكني أناقشك فقط، هذا حقهم بشرع الله..

احتد النقاش بينهما، فغضب أبي وأقسم ألا يتحدث أحد في هذا الأمر بعد اليوم.

مرض أبي -ذات يوم- أصابته لعنة الوباء الذي انتشر كالنار في الهشيم، انتقل إلى المستشفى، استمر بها أيامًا، ثم عاد إلى البيت لإكمال رحلة العلاج، تغير أبي قليلًا، لا بل تغير كثيرًا، ما عاد يصرخ في أمي صباح مساء، استطعت اللعب بحرية مع أصدقائي دون أن أحمل هم غضبه عليّ حين أعود، أصبحت أرى أسنانه، إنه يضحك، بدا أبي وكأنه ألطف من ذي قبل.

لـم أسـتمتع بـذلك التغيـر كثيـرًا، إذ سـرعان مـا امتثـل أبـي للشفاء، ما لبث أن عاد إلى سابق عهده وكأن تغييرًا لم يلمّ به.

بعد أيـام انتقل الوبـاء إلـى أخـي الطبيـب المنتظـر، حُجـز فـي المشفى، أهالت أمـي التـراب علـى رأسـها، وانطلـق لسـان جدتي بجملهـا الحزينـة التـي قالتهـا يـوم وفـاة جـدي، أعطـى أبـي حـق عمـاتي، وهـو يرجـو مـنهن العفـو والمسـامحة، قـرأت الحـزن والانكسار فـي عينـي أبـي لأول مـرة، ولا زلـت أرى تلـك النظـرات فـي عينيه وقد مضى على وفاة أخي أكثر من عشر سنوات.

العجوز والكلب الوفي..

يسع بيتنا العديد من البشر، تتلاقى فيه الأجيال، وتتجمّع الأُسر، يقطن فيه أبي وأعمامي الأربعة وزوجاتهم وأبناؤهم، يترأس ذلك الحشد الكبير جدّي الذي كان مشغولًا طوال الوقت بتجارته، تُعينه على ذلك المنصب جدَّتي تلك المرأة الحازمة، كانت -في الحقيقة- طيبةَ القلبِ، غير أنَّها تُظهر العكس، ربما منصبها وسط تلك العائلة الممتدة يتطلب ذلك الحزم، تُدير هذا البيت الكبير وتقضي بين نسائه بمهارةٍ تحسدنها عليها جاراتها العجائز، حين يأتين لزيارتها ترى الغيرة تملأ قلوبهن، وعيونهن تتساءل: كيف استطاعت تلك العجوز أن تجمع أبناءها -الذين أصبحوا رجالًا وأنجبوا الطفل والاثنين والثلاثة- حولها دون سخطٍ أو خلافات بين زوجات الأبناء، كتلك التي تملأ البيوت؟!

تضيق جدتي كثيرًا بانشغال جدّي بالتجارة، ترى أن السن قد تقدّم به، ويجب عليه أن يترك تلك المَهمَّة لأبنائه، غير أن جدّي -الرّجل الشديد العنيد- لم يعترف بذلك يومًا، وقد كان محقًا، فهو رجل قوي ترى فيه -على كبر سنه- من نشاط الشباب وحيويته، ما لا تراه في شباب هذه الأيام.

كذلك لدى جدتي رغبة تزعج جدي وتثير غضبه، طالما تنازعا بسببها، وهي تربية الكلاب، وجود الكلب في البيت سبب كافٍ لسعادتها، بينما لا يطيق جدّي ذلك ولا يقبله، فكلما اشترتْ جدّتي كلبًا صغيرًا لتربيته، غضب جدّي وتخلّص منه، حتى عزمت -ذات يوم- على أن تفعل ذلك دون علمه، ابتاعت واحدًا، وضعته في غرفة متطرفة في حوش البيت، ولمّا كان جدّي كثير

الانشغال، قليل التواجد في البيت، نجحت خُطَّتها، واستمر وجود الكلبِ في البيت شهرين كامِلين دون أن يعلم جدّي عنه شيئًا.

كانت فرحة جدّتي بذلك الكائن الصغير تدعو للدهشة، تتعامل معه كالابن الرضيع، تضع له الطعام بكرم الأم الحنون التي تتفنن في إعداد صنوف الطعام لابنها العائد من سفر. بينما زوجات أبنائها لا يروقهنّ ذلك أبدًا، اهتمام جدّتي بالكلب يبدو لهن شيئًا غريبًا مستنكرًا.

أتى اليوم الذي تعلم جدّتي يقينًا أنه آتٍ لا محالة، يوم أن علم جدّي بوجود ذلك الكائن المنبوذ، غضب وصمّم على طرده من الدار، في الصباح حمل أخي الكلب في جِوال -استجابة لأمر جدي- ورماه بعيدًا عن البيت ثم رجع، فإذا بنا في المساء نسمع صوت شيء يداعب باب البيت، بدا وكأنه يحزّه حزًّا، كان ذلك كلب الجدة قد عاد وحده إلى البيت بعد أن طُرِد صباحًا.

ثار جدّي، ولم يلتفت إلى لهفة زوجته، وفرحتها بعودة ضيفها المطرود، كمن فَرِحت بعودة حبيب بعد طول غياب، أصرّ على التخلص منه، ولكن هذه المرة سيفعل ذلك بنفسه.

في الصباح، كان جدي ذاهبًا إلى السوق، فاختار طريقًا غير تلك التي اعتادها كل أسبوع؛ لينفّذ خُطّته في التخلص من ذلك المتطفل، مرّ بدابته عبر طريقٍ جبلي وانتظر حتى ابتعد عن البيت مسافة كافية، ورمى الكلب، ثم أكمل طريقه نحو السوق.

غير أن ما حدث في المرة الأولى تكرر ثانية، وعاد الكلب الذي أضحى يحفظ طريق البيت جيدًا، كمغترب لم ينسَ موطنه..!

وكرّر جدّي ما فعله مرة ومرة، وفي كل مرة.. يعود الكلب إلى البيت، وتفرح جدّتي بعودته، ويصرّ جدّي على طرده، حتى

كانت آخر مرة حاول جدّي ذلك، عاد الكلب في تلك المرة، ثار جدّي وغضب كما يفعل في كل مرة، وتوعّد بطرده، إلا أنه انشغل عن ذلك فمرّ يوم.. ويوم.. وأسبوع وشهر، وفي كل يوم يقول جدّي إنه سيتخلص منه، مرت الأيام، ونسي جدّي أمر الكلب، ولم يعد يلتفت إليه، فسعدت جدتي بذلك كثيرًا.

عاش الكلب في البيت زمنًا يلقى من اهتمام جدّتي ورعايتها ما لا يلقاه أحد، فاعتدت كما اعتاد الأحفاد جميعًا على اللعب معه، حتى صار مسلّمًا بوجوده، كان ذلك الكلب الأبيض ذو النقط السوداء كلبًا عاديًا، كتلك التي تملأ الشوارع، غير أن اهتمام الجدة وعنايتها به إلى جانب لونه الجميل المميَّز الذي جعله قريب الشبه بتلك الكلاب التي يُربِّيها الأثرياء المُترفين زاد من جاذبيته، فأضحى محببًا لنا لا يصرفنا عنه سوى صراخ الأمهات وتحذيرهن، كذلك كان زوّار بيتنا الكبير يُطِيلون النظر إليه خلسة أو جهرة، وهو يتمسّح في قدمي سيدته العجوز الذي كان كثير السير خلفها -حتى أصبح كل منهما مرتبطًا أمام الناس بالآخر-، إلا في وجود جدي؛ لأن جدتي -الزوجة العاقلة الذكية- تتَّقي غضبه بأن تقلل من رؤيته للكلب قدر المستطاع.

مَرِضت جدتي -ذات يوم- فأحضرنا الطبيب الذي أمر بتوفير الرَّاحة التامة لها وعدم إرهاقها، فلم تعد تقوى على إدارة شؤون البيت الكبير، سرعان ما دبَّ الخلاف بين السلائف، أصبحن بالكاد يدبّرن شؤون البيت، بل كان ذلك يُعجزهن أحيانًا عندما ينخرطن في الخلافات والمشاحنات التي طفت واضحة على السّطح، فترى العجائز حين يأتين لعيادة جدتي يمصمصن الشفاه أسفًا على حال تلك العجوز التي لم تعد كسابق عهدها.

كنَّا نسمع نباح كلب الجدة في غرفته طوال فترة مرضها، أذكر مرة أنني أطلقت سراحه، فأخذ يجوب المكان، حتى وصل إلى غرفة جدتي التي تجلس على الكرسي، تتناول طعامًا أعدته لها أمي، فارتمى الكلب تحت قدميها بشوق كحبيب عائد لتوّه من سفر طويل، ثم رأيناه بعد ذلك باسطًا ذراعيه أمام غرفتها، كمن يحرس كنزًا يخشى ضياعه، يراه جدّي فيكظم غيظه مراعاة لحال زوجته المريضة.

ترك الكلب بيتنا هذا الصباح باختياره، دون أن يرسله أحد، غير أنّ ذهابه هذه المرة كان بلا عودة، بعد وفاة من كان يعود لأجلها مرة ومرة.

كانت صديقتي ..

لا أدرى ما العلاقة بين الغروب والحنين، تتملّكني هذه الحالة دائمًا وقت الغروب تنتهي بسماع صوت الأذان، سيّما بعد أن أصبحت في هذا المكان الموحش.

تملّكتني تلك الحالة اليوم مبكرًا، لم يأتِ الغروب بعد، لكن بوتقة الحنين قد تفجرت، وتذكرت كل الخائنين، غريب أن يحن قلبي إلى من باعوه بثمن بخس..!

قلت لها -يوم أن كنا نسير على الكورنيش في تلك الليلة- أنها أقرب الأصدقاء إلى قلبي، كنت أعلم أنني أكذب، فليس لدي أصدقاء غيرها حتى تكون أقربهم، ردت بصوتها العذب:

_ لا أعرف لي صديقة غيرك.

_ هل تذكرين يا نهال، أول يوم التقينا فيه؟

قالت وقد لمعت عيناها، وشردت قليلًا:

_طبعًا.

ضحكتُ بشكل هستيري، ثم استطردت:

_ يوم أن سقطت الباروكة عن رأسي، فضحك الجميع، وسخروا من تلك الرأس الفارغة، إلا أنتِ.. لم تفعلي.

ضحكت هي الأخرى، ثم قالت:

_ يومها اعتقدتُ أنكِ مريضة، لم أكن أعلم أنك مجنونة وأن تلك هوايتك..!

_ عشر سنوات مضت على ذلك اليوم، عمرٌ كما تقول أمي.

قالت وهي تنظر إلي مستفهمة:

_ ما الداعي الآن لسيل الذكريات هذا يا تُرى..؟

_ نتسلى قليلًا، نقبر الوقت الذي لا نملك أكثر منه.
قالت وهي تنظر إلى الساعة في يدها:
_ نتمشى على الكورنيش في هذا الوقت المتأخر، أليس هذا جنونًا؟!
_ أن تنظري إلى الأمور نظرة قاصرة وتصدري الأحكام وفقًا لها، غباء منقطع النظير، أليس هذا كلامك؟
_ ماذا بك اليوم يا ميرنا؟
_ جربي مرة أن تكوني مجنونة يا عزيزتي، افعلي ولا تبالي بما يقال..!
_ تعرفين أني لست كذلك..
نعم.. هي لا تحب التصرف بجنون، ربما هذا ما جمّل صورتها في عينيه، هي الأقرب إلى طباعه، بينهما تشابه يصل أحيانًا إلى حد التطابق، لكنه اختارني من البداية، قال إنه يحبني وصدّقت، يا لسذاجتي..!
_ ميرنا، أين ذهبتِ؟ هل أحدّث نفسي؟!
_ نعم نعم أعرف، ترتبين لكل شيء، لا تفعلين دون هدف، تهتمين كثيرًا بما يقوله الناس، ترسمين حدودًا لحياتك وتكرهين الخروج عنها.
_ وهل في ذلك عيب؟
_ بالطبع لا، وصداقتنا خير دليل، استطعنا أن نكون أصدقاء، رغم اختلافنا.
_ الاختلاف لا يعني التنافر.
_ بالتأكيد.
قالت وقد استبدّ بها الضيق:

_ هيا لنذهب من هنا، يقلق شريف عليكِ إذا تأخرتِ.
ارتسمت على وجهي ابتسامة ساخرة، ثم قلت:
_ زوجي العزيز، هو يعرف أننا معًا الآن، يطمئن كثيرًا لوجودي معكِ، تعرفين..!
ارتبكت قليلًا، عبثت بأصابعها، ثم قالت وهي تخفي يديها في جيوب معطفها:
_ ألا تشعرين بالبرد حقًا؟!
_ ليس كل ما نشعر به يكون صادقًا بالضرورة..!
_ لا وقت لجنونك هذا، فلنذهب، لم أنتهِ من تحضيرات الحفل، ليكن بعلمك.
غدًا عيد ميلادي، تعدُّ له (نهال) منذ أسبوع، هي تفعل الكثير من أجلي، قالت إنها أعدّت لي مفاجأة ستسعدني كثيرًا، لكنها حتمًا لن تكون أجمل من مفاجأتي يا صديقتي العزيزة.
_ لنعد يا ميرنا، أشعر بالتعب.
_ ليس قبل أن نعتلي هذا السور، أريد أن أصرخ بأعلى صوت في هذا السكون الكئيب، فعلناها يومًا، ألا تذكرين؟!
_ أذكر، ولكن...
قاطعتها وأنا أضحك ضحكة عالية رنّت في سكون الليل، جذبتها من يدها الرقيقة الناعمة:
_هيا.. هيا، لا تقلقي، سأمسك بيدك جيدًا أيتها الجبانة.
ارتقينا السور، وما أن استوى وقوفنا، أطلتُ النظر إلى عينيها الزرقاوين، احمرّ أنفها ووجنتاها من شدة البرد، فازداد جمالها، قالت وقد نفد صبرها:
_ إن أصابني الزكام، سأورطكِ في تحضيرات الحفل.

امتلأت عيناي بالدموع وأنا أوجه إليها سؤالًا لا أنتظر إجابته:
_ لماذا يا نهال؟!
كأنها لم تفهم مرادي، نظرت إليّ بعينين متسائلتين، فتملكني الغضب.
_ آخر من توقعتُ خيانته هو أنتِ يا نهال، صدمتي فيه ليست شيئًا أمام صدمتي فيكِ، طعنتني في ظهري رغم ما بيننا.
ارتجفت يديها، وزاد احمرار وجهها، حاولت ابتلاع ريقها، نزعت يدها من يدي، ثم قالت:
_ عن أي شيء تتحدثين؟
قلت وأنا أمسك بذراعها بقوة:
_ لقد رأيت محادثاتكما على هاتفه، عرفت كل شيء، لا تنكري يا صديقتي العزيزة.
_ يبدو، يبدو أن الجنون قد بلغ بكِ مبلغه..
خرج مني صوت قهقهة هزّ قلبي رعبًا، دفعتها بكل قوتي لتسقط في الماء، ومعها صداقتنا.

في الطريق إلى البيت ..

في موقف السيارات تقف (هدى) مرتدية معطفًا فضفاضًا بياقة ضخمة وأكمام عريضة طويلة، تتأبط حقيبة يد صغيرة، وقد تدلَّت حقيبة أخرى خلف ظهرها، فبدا جسدها النحيف ممتلئًا على غير حقيقته، احتل التوتر ملامح وجهها ، سمعتْ صوت الأذان ينطلق من مسجد مجاور، فأدركت أن الساعة قد تجاوزت السادسة، نظرت في الهاتف، أوشكت البطارية أن تفرغ.

_ تُرى هل أخطأتُ؟ هل كان عليّ انتظار الصباح، لكنني اضطررت لذلك، لن أقوى على المبيت وحدي.

لم يكن ذلك الأتوبيس الذي حضر بعد انتظار طويل متجهًا إلى قريتها مباشرة، لكن قد لا يأتي غيره حتى الصباح، فركبت كما ركب الجميع.

الجميع رغم اختلاف وجهاتهم تكدَّسوا داخل الأتوبيس الضخم، بدأ الظلام يرخي سدوله، أُنيرت أعمدة الكهرباء.. فانعكس ضوؤها فوق الأشجار على جانبي الطريق، بدا المنظر جميلًا.. لكنه كان لهدى مصدر فزع؛ فهي وحدها في هذه الرحلة الليلية، أخرجت الهاتف من حقيبتها؛ لتتحدث إلى أخيها، تقترب الساعة من الثامنة.. ما إن طلبت الرقم حتى أظلم الهاتف «آه.. لقد فرغت البطارية..!»

تنظر حولها بتوجّسٍ وحذرٍ، تتفحَّص وجوه الجالسين، وقد استبدّ بها الخوف من مجهول لا تدرك كُنْهه.

يجلس قبالتها شاب عشريني، أشقر الشعر يضع نظارة سوداء فوق رأسه، وسمّاعات الهاتف في أذنيه، أما جوارها فتجلس فتاة في سنها أو قد تكبرها بعام على الأكثر، ما إن جلست حتى بدأت تتحدث في الهاتف، ينخفض صوتها حينًا ويرتفع حينًا آخرَ، فيختلط بصوت المذياع، وقد اختار السائق محطة إخبارية لا يستمع إليها أحد، عمّ الضجيج وتداخلت الأصوات.

يقف هذا الأتوبيس الضخم البطيء عند مدخل كل قرية فينزل عدد من الركاب وفجأة.. نشب شجار بين أحد الركاب -وكان رجلًا في الخمسين- وبين الشاب صاحب السماعات، تطور الأمر من تراشق بالألفاظ إلى تشابك بالأيدي، فاضطر السائق للوقوف.

انزعجت (هدى)؛ فالمسافة التي تقطعها عادة في ساعة ونصف استمرت أكثر من ثلاث ساعات، وهي لا تفكر إلا في لحظة وصولها في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وهؤلاء يتشاجرون، والفتاة تزعجها بحديث لا ينقطع، والأتوبيس البطيء توقف عن السير..!

انتهى الشجار بين الشاب والرجل الخمسيني، وبدأ الأتوبيس في الحركة مجددًا..

بدا مدخل القرية يلوح في الأفق، نزلت من الأتوبيس وكأنها مُقْدمة على موت محقق، الساعة الحادية عشرة في ليلة غاب فيها القمر خلف هذا الضباب الكثيف، ترى القرية وقد سكن أهلها تمامًا، فتشعر وكأن الفجر أوشك أن يطلع!

يجلس (الخفير) على كرسيّ، وقد تدثّر بمعطف ثقيل فلا تكاد تتبين رأسه من رجليه، وقد أشعل جذوة من النار بجانبه، سارت في هذا الضوء الخافت، بدأ الخوف يتملّكها، انخرطت في البكاء وهي تقف أمام أحد أعمدة النور تبدو بوجهها الصغير وعينيها الغارقتين في الدموع كعصفور ضعيف كُسِرَ جناحه، فانزوى ينتظر مصيره المجهول.

لاح نور قادم من بعيد، كانت سيارة (نصف نقل) بيضاء، تحمل بعض الصناديق، يقودها رجل قوي البنية مفتول العضلات يرتدي جلبابًا رماديًا خفيفًا لا يتناسب مع هذا البرد القارس، اقتربت السيارة منها، ارتعدت أطرافها وبدأت دقات قلبها في الازدياد، استولى الخوف على جميع أركانها، نزل الرجل من السيارة، بدا وكأنه شبح وسط الظلام، اتَّجه ناحيتها وهو يقول:

_ أي خدمة يا آنسة؟

تجمدت في مكانها، أحسّت وكأن شيئًا مخيفًا يقترب منها، وصدى صرخة مكتومة قد حُبِسَت في أعماقها عجزت عن إخراجها لكنها استجمعت نفسها، وحاولت إخفاء قلقها، أخرجت الهاتف من حقيبتها، ثم قالت:

_ كنت في الجامعة، تأخرت بسبب ظروف المواصلات.
_ تفضلي معي أوصلك حيث شئت.
امتقع لونها، ونظرت إليه بارتياب، ثم قالت:
_ شكرًا.. شكرًا لك!

_ الوقت متأخر، والوقفة هنا خطر.
_ أخي قادم الآن، إنني أنتظره.

أمسكت الهاتف، تظاهرت بالحديث مع أخيها، وصفت مكان وقوفها وهي ترفع صوتها بالحديث عمدًا؛ لتُسمع الرجل، فاستيقظ الخفير من نومه، وقبل أن تُنهي ذلك المشهد المفتعل خرج من بين أحضان الظلام نور دراجة نارية، وصوت شاب يصيح :

_ هدى..!
انشرح صدرها وانفرجت أسارير وجهها، انطلقت نحوه كالسهم، وارتمت بين يديه غارقة في دموعها، لقد كان هذا أخاها (خالدًا).

القراريط الخمس

كان ذلك منذ ثلاثين عامًا على وجه التقريب، كانت أمك في المدرسة الإعدادية، الأخت الكبرى لخمس بنات يعولهن أب لا يملك من حطام الدنيا سوى قراريط خمسة يرى أنها تأخذ منه أكثر مما تعطيه، وكان منتهى أمله أن يرى من بناته ما يجعلهن مصدرًا لفخره أمام نفسه وأمام الناس.

تلك القراريط هي مصدر رزقنا الوحيد، غير أن أبي لا يعطيها العناية الكافية، يقول إنها لا تفتح بيتًا، كان راغبًا في السفر إلى الخارج كما يفعل أكثر أهل القرية الذين يفرُّون خارجها بعد أن ضاق بهم العيش داخلها.

فكر أبي في بيع أرضه؛ ليشارك صديقه في مشروع ملأ رأسه بما سيجني من أرباحه، اعترضت أمي التي جعلت القراريط في كفة وحياتها مع أبي في الكفة الأخرى، فتراجع أبي عن فكرة البيع أمام إصرارها.

_ الأرض تطعمنا شهدًا، لو أنك تهتم بها يا سالم..!

_ الشهد لا يطرح في أرضنا يا ثنية.

عادت فكرة السفر تحلّق في رأس أبي، السفر خارج البلاد فكرة لن يقوى أبي على ثمنها، فقرر أن يسافر داخلها، فرصة للعمل في مزرعة رجل ثري في أسوان كانت جديرة بشغل فكره، قد جلبها له العم (عامر)، صديقه الذي يعمل هناك، ظل في حيرة من أمره قرابة أسبوعين هي مدة إجازة صديقه.

جمعنا أبي حوله، حدثنا حديثًا طويلًا، لم نفهم جلّه، غير أن نظراته ولمساته الحانية الرقيقة فوق رؤوسنا، ودموعه التي

جاهد في إخفائها كانت قادرة على الوصول إلى قلوبنا البريئة، ودعناه بدموعنا، بينما خبَّأت أمي دموعها وسط دعواتها لأبي بالسلامة والرزق.

بعد مرور أسبوع، اعتنت فيه أمي بتلك الأرض كإحدى بناتها.. كان الليل قد سرى والفجر كاد أن يطلع، استيقظت أمي على إثر طرقات متتابعة، واستيقظنا جميعًا، عشنا لحظات من الخوف القاتل قبل أن نقترب من الباب، فيأتي صوتٌ من الخارج:

_ افتحي يا ثنيه أنا سالم.

_ سالم!

_ أبي!

انطلقتُ أسبِقُ أمّي نحو الباب، فإذا بأبي خارجه، يحمل حقيبة سفره القصير، يرتجف من البرد، وتبدو عليه آثار الإعياء والتعب، تحلَّقنا حوله، نظرت إليه أمي في تساؤل منعها منه ما رأته من تعب.

في المساء، كنا نجلس على نار المدفأة، فبدأ أبي يقص حكاية رحلته القصيرة التي لم تكتمل:

_وصلنا إلى المكان الذي قصدناه في مدينة أسوان، مزرعة كبيرة صاحبها رجل ثري طاعن في السن، كان الرجل طيبًا ليّنًا، لا يعيش معه في تلك المزرعة الشاسعة سوى ابنه الذي كان على العكس منه تمامًا، مَهمّتي لا تتعدى الاهتمام بأشجار النخيل التي تملأ أرجاء الحديقة الجميلة الشاسعة ففرحت بذلك، لكن كما تقولين دائمًا يا ثنيه «يا فرحة ما تمت....» إذ سرعان ما هبَّت الريح وانقلبت الأحوال.

كنت -يومها- قد انتهيت لتوّي من ريّ أشجار النخيل، (عامر) منهمكٌ في تنظيف المكان، والرجل مشغول مع بعض الأوراق على طاولة كبيرة، وأمامه فنجان القهوة التركي، الذي يعدّه له (عامر) على طريقته، والابن عائد لتوّه من الخارج بسيارته الفارهة، سمعنا -فجأة- أصواتًا متداخلة، صوت سيارة ضخمة كأنما تدكّ الأرض دكًّا، وطلقات نار في الهواء، والحارس يهرول نحو سيده، وقفنا مندهشين لا ندري ماذا يحدث، فإذا بأربعة رجال يدخلون المكان مشهرين أسلحتهم، اتجهوا نحو الرجل المسنّ فقيدوه، فتحركت داخل زوجك نخوة ليس من الذكاء إبدائها في موقف كهذا، فأشار الرجل الضخم بمسدسه في اتجاهي قائلًا:

_ لا تكن مندفعًا، فتخسر حياتك من أجل رجل لا تعرفه!

فانزويتُ في الركن أتابع ما يحدث في دهشة و(عامر) ينظر مندهشًا لا يصدق أن سيده في هذا الموقف، وقد قيد هؤلاء الرجال الرجل المسن وابنه، وأنا أندب حظي السيئ، ولا شيء يشغل فكري سوى أنتِ وبناتي.

بعد ساعات من الأسر، جاء الأمر بإطلاق سراحي و(عامر)، قال أحدهم وهو يرمي بنا خارج المزرعة الكبيرة:

_ من هنا إلى بلدتكم، إن كنتما تريدان الحياة حقًا، فلا تفكرا في هذين الرجلين وعودا من حيث أتيتما.

سرنا في صمت ونحن لا نصدق أننا حقًا نجونا من هؤلاء المجرمين بعد فيلم الرعب هذا، فكرنا في إبلاغ الشرطة إلا أن أقدامنا أَبَتْ إلا أن تقودنا نحو القطار، فررنا بجلدنا ولا نعلم ما هو مصير الرجل وابنه، ولا ماذا جنيا ليستحقا ما حدث، عدت

وأنا لا أفكر إلا فيكن وفي قراريطنا الخمسة التي أهملتها؛ لأرعى غيرها، إلا أنها نادتني، فلن أتركها بعد اليوم..!

_ هل تدرك لماذا قصصت عليك تلك القصة يا بني؟

_ أدرك يا أمي، اطمئني.

_ تلك القراريط التي أصرّت جدتك على الاحتفاظ بها، ورواها جدك بدمه بعد أن عرف قدرها، يريد أهل الشر انتزاعها منا اليوم، أريد أن أرى منك رجلًا لا يقبل التنازل أبدًا، رجلًا لا يفرّط في أرضه وإن فقد حياته..!

الطريق الأسهل

انزعجت حين أخبرني رئيس القسم بتلك المهمة التي كلفني بها، حاولت أن أعتذر لكنه أصر، هو يقدرني جدًا؛ لذا يتعمد تكليفي بما لا أطيق، سأجري حوارًا مع «عادل كعبورة» واحد من أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم «كاتب» مع أنه لا يقدم إلا التفاهة، يمطرنا بعدد لا نهائي من الكتب التي تتولى طباعتها دور نشر لا تعرف فرقًا بين الألف و(كوز) الذرة..!

_ لمن تكتب..؟!

ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال:

_ بداية ساخنة، أعلم أنكِ لا تحبينني.

ارتبكت قليلًا، قبل أن أرد:

_ ومن قال ذلك..؟!

_ مقالاتك، الغريب أنكِ تتابعين كل ما أكتب، رغم رفضك له..!

_ سؤال يحيرني كثيرًا، هل أنت مقتنع بما تكتب..؟!

_ إن لم أكن مقتنعًا به، لِمَ أكتبه إذًا..؟

_ تبدو من طريقتك في الحوار ..

_ نعم نعم .. أكملي.

_ تبدو على قدر عالٍ من الثقافة، عفوًا تقتلنا السطحية في مؤلفاتك.

_ تقصدين التفاهة.

احمرّ وجهي حرجًا، ثم استطردت:

_ رواية بالعامية، هذا أسوأ ابتكار عرفناه.

قال وهو يرشف القهوة ببطء، ويعود بظهره إلى الوراء:

_ لكنها لاقت نجاحًا باهرًا، أليس كذلك..؟!

قلت بحدّة:
_ ليس كل ما ينجح، يُخلّد ويبقى أثره.
رد بهدوء مستفز:
_ ومن قال لكِ أنني أبحث عن خلود أو بقاء أثر..؟!
_ تلك رغبة كل كاتب، لم أَرَ كاتبًا يكتب لأهل زمانه فقط.
_ لكنها ليست رغبتي.
انطلقت مني ضحكة ساخرة، قبل أن أقول:
_ أنت مختلف إذًا.
صمت لحظات، ترقرقت في عينية دمعة عابرة، لم أعرف لها محلًا من الإعراب، لكنه قاوم سقوطها، ثم قال:
_ ماذا تعرفين عني؟
_ ما يعرفه الجميع.
_ هل سمعتِ عن «شاكر مسعود» قبل اليوم..؟!
_ من "شاكر مسعود" هذا؟
_ بالطبع لن تسمعي، هو كاتب لم يصدر له سوى كتاب واحد، رواية لا أظن أن أحدًا يذكرها اليوم، ألّف بعدها كتابًا غيَّبه خلف أسوار السجون ثلاث سنوات، ومنها إلى أسوار المقابر، بعد أن تلقى طعنة من سجين آخر.
_ هذه أول مرة أسمع فيها عن ذلك الرجل.
_ ذلك الرجل هو.. جدي
_ ماذا..؟!
_ نعم.. جدي، والآن قولي، أي الحالين ترينه أفضل، من صيّرته أفكاره تحت التراب، أم من جارى تفاهة الواقع فملكه؟
_ لقد كان الرجل صاحب مبدأ، دافع عنه حتى النهاية.

_ أفكار لا تغير واقعًا، لا قيمة لها.
_ وهل هذا مبرر لتقديم محتوى سطحي؟
_ تقصدين محتوى تافه.
_ نعم، تافه، هو كذلك.
_ يبدو أننا لن نلتقي عند نقطة.
_ هذا ما أراه أيضًا.
استأذنت للانصراف وأنا أسخط على رئيسي في العمل الذي لم يقبل اعتذاري عن تلك المقابلة التي أرهقتني، أثناء خروجي من المكان، لفت انتباهي غرفة واسعة مفتوح بابها على مصراعيه، إنها مكتبة ضخمة تتوسط البيت تمامًا، ولجتها، لم أستطع إخفاء انبهاري بما رأيت، نظرت إليه، فقال بهدوء مستفز:
_ أحتفظ بالعمق لنفسي، لكنني لن أُخرج لهذا العالم إلا التافه..!

قصة رومانسية ونهاية سعيدة..!

هذه هي الورقة العاشرة التي تتلقفها سلة القمامة، منذ أكثر من ساعتين، أحاول عبثًا أن أكتب قصة رومانسية بنهاية سعيدة..!

_ بؤس ونحيب، لا تعرف رواياتك سوى النهايات البائسة يا نادر، ارحمنا يا أخي.

_ أحب أن أكون واقعيًا، تعرف.

_ بل تلك قدراتك، اعترف. -قالها بشيء من الجدية-.

_ تستفزني، أليس كذلك. -قلتها بضحكة خرجت من قلبي-.

_ بل أتحداك، وليس أمامك إلا أن تقبل التحدي.

_ أي تحدٍ؟! -قلتُ مستنكرًا-.

_ أن تكتب قصة قصيرة، قصيرة يا صديقي، رومانسية ذات نهاية سعيدة، إن فعلت أعترف بقدراتك ككاتب.

ضحكت بسخرية، وأنا أقول:

_ رومانسية ونهاية سعيدة..؟!

_ لن تستطيع، أعرف أعرف.

يبدو أنه كما قال (إبراهيم)، لن أستطيع، يقول (جون جولسور ذي):

«إن الفن لا يكون فنًّا إلا إذا كان مصنوعًا مما أحسه الفنان ورآه، لا مما قيل له إنه يجب أن يحس به ويراه» كيف لي إذا -يا صديقي- أن أكتب عن شيء لم أَعِشْهُ؟ حتى من عاشوه ممن أعرفهم لم يسعدوا به، أحبّ أبي أمي، لكنها لم تشعر به قط، طلبت الطلاق ومضت تؤسس حياتها مع آخر، وظل هو يتقلب

على جمر ذكرياته معها، أختي (هدى) تحب زوجها كثيرًا، لكنها لا تزال تريق دموعها بين يدي كلما أتت لزيارتي.

أعرف لماذا تتحداني هذا التحدي يا صديقي، تريد أن يعيش صديقك تلك المعاني ولو في قصصه ورواياته، غير أنني قبلت التحدي، إذن لا بد من الانتصار، سأحاول أن أكتب ما لم أعشه، سأتخيل، نعم قدرتي على التخيل فائقة، حتمًا سأنجح.

كانت حياتهما جنة على الأرض، كان الحب ترياق الحياة لكليهما، كان...

ما هذا العبث؟! تم تمزيق الورقة الحادية عشرة بنجاح..!

تخلّت عني جميع المفردات، الكتابة لعبتي، أبدو الآن لعبة في يدها، ستنتهي أوراق مفكرتي هباءً، أعددت كوبًا من القهوة، يقول المتغزلون فيها أنها تعين على الإلهام وتنشط الخيال، هراء، ليتني أعددت كوب الشاي الذي أحبه..!

جمعهما القدر بعد فراق دام ثلاثين عامًا، قابلها بعد أن كادت شمس عمره على الغروب...

تبًّا، هذه الكلمات ستصل بي إلى وصف قبرهما..!

لم يتبقَّ في مرارتي كثيرًا، أحسست أنها ستنفجر، زاد الحر من إحساسي بالاختناق، تركت البيت، وعلى مقهى (مرمرة)، جلست كعادتي، بعد ساعة مضت، قضيتها في النظر إلى شاب وفتاة يجلسان قبالتي، يبدو من إقباله عليها أنهما يعيشان قصة حب، سأتقمص شخصية هذا الشاب، حتمًا سيحضر الإلهام، ويتم المطلوب.

بعد أن انتهيت من كتابتها انفجرت ضاحكًا، بدت لي وكأنها تنتمي لكاتب لآخر، لكنها حتمًا ستنال إعجاب (إبراهيم)، سيرى أنني ربحت التحدي، كلها دقائق ويقرُّ بالهزيمة.

_ أرى في عينيك نظرة ريبة.

تنهد ثم قال:

_ أرجو أن أخسر هذا التحدي.

_ اترك هذه الأوراق، تناول قهوتك أولًا.

انفجرت ضاحكًا، بينما ضرب (إبراهيم) كفًّا بكفٍّ عندما انسكب فنجان القهوة فوق المفكرة؛ فغرقت القصة الرومانسية ذات النهاية السعيدة، قال بنبرة ساخرة:

_ يبدو أن أبطالك من فرط السعادة أرادوا أن يشربوا قهوتي..!

أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ..

في إحدى ليالي الشتاء القارس، الأمطار تغزو الشوارع فتعيق المارة، كان (منير) -الطبيب الوافد من المدينة- يلوم نفسه بشدة:

_ لماذا لم أنتظر الصباحَ؟!

بعد عناء وصل إلى المكان الذي قصد، حلّ التراب ضيفًا ثقيلًا على جميع الأسطح، كما استوطنت الأركانَ خيوطُ العنكبوت، فبدا البيت قديمًا مهجورًا رغم أن جدرانه المتينة توحي بغير ذلك.

سمعَ صوتًا، اعتقدَ أنه (هاشم) -التمرجي الذي يعمل في عيادته بالمدينة- أطال النّظر حيث مصدر الصوت، إلا أن الضوء الخافت عند مدخل البيت لم يُمكّنه من رؤية شيء، بعد لحظاتٍ تكرَّر الصوت نفسه، يأتي هذه المرة من إحدى الغرف، اتَّجه بخطوات متثاقلة ناحية الغرفة المغلقة، نفسها طبقات التراب وبيوت العنكبوت، غير أن زجاج النافذة كان مكسورًا، وعلى الأرض وقع أقدام مبعثرة لم يتمكن من تحديد هويتها.

لا مفرَّ من قضاء ما تبقى من الليل هنا وسط الأجواء الترابية، ألقى بجسده على أحد الكراسي القابعة في الغرفة، حاول أن يستسلم للنوم بعد هذه الرحلة المرهقة، لكن الهمَّ طرق باب قلبه، فتذكر مشادَّته مع أخيه الأصغر (حسين)، لقد تشاجرا اليوم لأول مرة مشاجرة حادّة انتهت بصفعة منه على وجه أخيه..!

في الصباح.. انقطع المطر، وأشرقت الأرض بنور ربها، كان (هاشم) رجلًا قصيرًا بدينًا، تتلألأ في وجهه ملامح الطيبة، يحدث نفسه وهو يقطع الطريق الزراعي متّجهًا إلى البيت الذي سيصبح مقرًا لأول عيادة طبية في القرية:

_ سيرتاح أهل القرية أخيرًا من تعب الانتظار أمام الوحدة التي يأتي طبيبها مرة ويغيب عشرة، سيصبح ذلك البيت الذي يُخِيفَهُم مكانًا للراحة والشفاء، لن أترك البيت لابن العمدة يتخذه وكرًا لقذارته.

بحث (هاشم) عن عمال لنظافة البيت، لم يذهب معه سوى (عوض) مُكرهًا مضطرًا، ولولا حاجته للجنيهات التي وعده بها (هاشم) ما كان ليخاطر هذه المخاطرة..!

_ دعك من هذه الخرافات يا عوض، فكّر في الخير الذي سيعمّ على أهل القرية.

_ لولا العوز، ما كنت لأذهب معك.. الله يسترها.

استيقظ (منير) من نومه على وقع أقدام تهرول في الخارج، فاندفع ناحية باب الغرفة في هلع، فإذا بهاشم وعوض عند مدخل البيت قد وقفا مندهشَين عند رؤيته، وكانا قد فزعا حين وجدا الباب مفتوحًا ونور الغرفة مضاءً.

لما امتدت يد النظافة هنا، بدا البيت في صورته الحقيقية، بيت كبير يتكون من طابقين، لا زالت جدرانه تحتفظ برونقها ومتانتها، حاول (منير) أن يرتاح قليلًا، إلا أنه سمع أصواتًا مزعجة قادمة من الغرفة المجاورة، توجّه إلى هناك، لم يجد شيئًا، تذكر أن ذلك قد حدث الليلة الماضية، قرر أن يسأل (هاشمًا)، فوجده مستغرقًا في حديثه مع (عوض)..

_ لا بد أن تصارحه بحقيقة الأمر، أنت تغُشّه بهذا الشكل!

_ غش..! الدكتور منير لا يعترف بهذه الخرافات ولا يلقي لها بالًا.

بعد الانتهاء من عملهما، أخذ (عوض) أجرته المتّفق عليها وانصرف، واجه (منير) (هاشمًا) بما سمع، فلم يجد الأخير بُدًّا من المصارحة..

****

كان هذا البيت فيما مضى كجنة صغيرة على الأرض، يمتلئ بصنوف الأشجار والزهور التي ينتشر أريجها في كل البيت، ربّ الأسرة رجل من أغنياء القرية، مال وجاه وأربعة من الولد، ما كان يُعيبه -في نظر أهل القرية- إلا سوء علاقته بأخيه الفقير.

لم يكن يَقُضّ مضجع الرجل سوى التفكير في مصير ابنه الصغير (مروان) الذي يعاني من إعاقة ذهنية، عرضه على الأطباء، لكن دون جدوى، تقبلت الأم وضع ابنها فكانت تقضي جُلّ وقتها في رعايته، حتى ملك عليها حسّها، لكن الأب أضحى وكأنه أُسْقِط من حساباته تمامًا، أما الإخوة فكانوا بين مستثقل حمله، ونافر منه ناقم على انشغال الأم الدائم به..!

بعد وفاة الأب، بدأ الأبناء يفرّون من البيت واحدًا تلو الآخر؛ ليؤسس كل منهم حياته في بيته الخاص، بينما ظلّت الأم ترعى ابنها الذي بلغ من العمر عشرين عامًا، حتى اعترتها الشيخوخة وهاجمها الكبر، لم يكن يشغلها سوى مصير ابنها بعد رحيلها، من سيهتم به ويرعاه؟!

رحلت الأم، وظل الابن المسكين وحده في البيت الذي تحول إلى خراب بعد رحيل ربّته، أضحى (مروان) أسيرًا لإحسان ذوي المروءة الذين قَلَّ عددهم يومًا بعد يوم؛ نكاية في الإخوة الذين تركوا القرية ولا يأتون إلا باتصال من أحد الجيران حين تتأزم حالة أخيهم.

أصبح (مروان) ذا مظهر يعرفه به أهل القرية جميعًا، أضحى كمتشرد لا مأوى له، ملابس أكلها الاهمال، وجه خاصمه الماء وكساه الوهن، وقدمان حافيتان أكثر الوقت، إلى أن قرر الأخوة اتخاذ مربية لأخيهم، أتوا بها من البندر ذات يوم، لم تكن تفقه شيئًا في التعامل مع حالته، اقتصر دورها على نظافة البيت وإعداد الطعام، إلا أنها كانت تنقطع عنه أيامًا ثم تعود.

كنت عائدًا إلى بيتي ذات مساء، فرأيت نافذة غرفته مفتوحة، أزحت الستار، رأيته معلّقًا من رقبته، وقد تجمع حوله الذباب، ظللت أيامًا محل اتهام الشرطة، كذلك كانت تلك الخادمة محلًا للاتهام، حتى ثبت بعد ذلك أنه مات منتحرًا..!

منذ ذلك اليوم يسكن في عقول الناس اعتقاد بإقامة الجن والعفاريت هنا؛ لأن أصحاب البيت لم يقوموا بإحضار قس؛ يُخرج روح المقتول، كما اعتاد أهل القرية.

تنهد (منير) -وهو يحاول إخفاء دموعه عن (هاشم)-، ثم قال:

_ الأخ عادة ما يشدّ أزر أخيه..!

_ كان أبوهم كذلك مع أخيه، كما تدين تدان.

التفت (منير) -فجأة- كمن تذكر شيئًا، ثم قال:

_ كما قلتَ يا هاشم أنا لا أعترف بتلك الخرافات، لكنني مذ دخولي البيت وأنا أسمع أصواتًا مزعجة، هل...

_ يا دكتور، لن تكون تلك الأصوات إلا بفعل ابن العمدة الذي يتخذ من البيت وكرًا لارتكاب جرائمه.

ما إن انتهيا من حديثهما حتى سمعا طرقات متتابعة، فسارع (هاشم) ليعرف من الزائر، فإذا به (حسين)، يقف أمام الباب، لم يصدق (منير) عينيه، أسرع نحو أخيه، واحتضنه بحرارة.

مبلغ من المال

عندما أحنيت ظهري لالتقاطه، تذكرت حلمي الساذج الذي كان يلازمني دائمًا، بينما أسير لاهيًا سأعثر على النقود تبتسم لي وسط التراب، كنت دائمًا أسير مطأطأ الرأس؛ أملًا في تحقيق هذا الحلم، لكن يجب أن أعيد هذا المبلغ إلى صاحبه، هكذا علّمني أبي، لكن ترى كيف سأجد صاحبه؟ وأين؟

حسنًا، سأسأل كل من أقابل، وإلا وضعته في صندوق الصدقة بالمسجد.

_ وجدت مبلغًا من المال، أبحث عن صاحبه، هل سقط منك شيء يا عم؟

نظر الرجل إليّ مليًا، ثم قال:

_ نعم نعم، حدث بالأمس أثناء عودتي من الحقل.

_ كم تفقد؟

تردد قليلًا، ثم قال:

_ مئة جنيه، أو خمسين، لا أذكر بالضبط.

_ إذًا ما وجدته ليس لك.

قطَّب جبينه، وتركني غاضبًا، هذا تاسع تسعة أخبروني -عندما سألتهم- أنهم فقدوا اليوم مبلغًا من المال.

اقتربت من المسجد، قررت أن يكون ذلك المقبل عليّ آخر من أسأله، بعدها سأتوجه إلى صندوق الصدقة بالمسجد.

_ يا عم، وجدت مبلغًا من المال، هل سقط منك شيء؟

_ نعم أفقد مبلغًا منذ يومين.

يبدو أنني الوحيد الذي لم يفقد نقودًا في القرية..!

_ كم ضاع منك؟

حرك بؤبؤ عينيه يُمنة ويُسرة، ثم قال:
_ بالأمس سقطت مني خمسون جنيهًا، واليوم عشرون، منذ يومين فقدت مئة.
حملقت في الرجل، فانفجر في وجهي كالبركان:
_ قل لي كم وجدت وسأخبرك إن كان لي أو لا.
_ اطمئن، ما وجدته ليس لك يا عم.
لكن الرجل كشَّر عن أنيابه، وأمسك بتلابيبي:
_ هل تظنني سارقًا، هل هذا ما علّمك إياه أبوك، لن أتركك حتى تقول كم من المال وجدت..!
حاولت الإفلات منه، لكنه أحكم الإمساك بي، فقلت:
_ حسنا يا عم، سأُريك ما وجدت.
أفلت الرجل قبضته قليلًا، فأزحته وأطلقت ساقيّ للريح، فشيّعني بسيل من الشتائم.
عندما وصلت إلى المسجد، وجدت أبي يقف كأنه ينتظرني، ما إن رآني حتى جذبني من يدي وسار بي ناحية بيت العمدة.
_ إلى أين يا أبي؟
هز أبي رأسه، هزة المغلوب على أمره، ولم ينبس بكلمة.
في دوار العمدة يجلس عمدة قريتنا الفظّ بزيه المعتاد، شيخ البلد عن يمينه، وإمام الجامع عن يساره، كركرة الشيشة تعوي فوق الرؤوس، رحب العمدة بأبي فور دخولنا، قائلًا:
_ اجلس يا عوضين.. اجلس.
_ العفو يا حضرة العمدة، خير..؟
قال شيخ البلد بصوته الذي يشبه نقنقة الضفادع:
_ سمعنا أن ابنك وجد مبلغًا من المال، ويبحث عن صاحبه.

أجبت بزهو المنتصر:
_ نعم يا شيخ البلد، لم أجد صاحبه، لذلك سأضعه في صندوق الجامع.
فوجئ أبي بالأمر، لكنه استطرد قائلًا:
_ ابني أمين اسم على مسمى يا حضرة العمدة.
قال شيخ الجامع وهو يفرك يديه على عصا يتوكأ عليها:
_ لكنك لم تسأل العمدة يا ولد، قد يكون صاحبه.
تجمدت في مكاني، نازعتني رغبة في الضحك، هل هذا المبلغ الزهيد يمكن أن يكون للعمدة، وإن كان، فهو لا شيء، يبدو أنهم اعتقدوا أنني وجدت كنزًا..!
قال العمدة، وهو يعقد رجلًا على رجل:
_ لقد فقدت المحفظة بأكملها أمس، كان فيها مبلغ كبير، لا أتذكر قيمته، ربما ما وجدته بعض ما حوته محفظتي.
قال أبي بصوت مرتجف:
_ إذا هو لك يا حضرة العمدة. فأمَّن شيخ البلد وإمام المسجد على كلام أبي.
أخرجت جنيهًا معدنيًّا من جيبي، وجبيني الصغير يتصبّب عرقًا، فلما رأوا الجنيه غارقًا في كفي، غضبوا ثلاثتهم، اتهموني بالكذب وإثارة البلبلة، وأمر العمدة بجلدي، فصرخت قائلًا:
_ هذا ما وجدت يا أبي، هذا كل ما وجدته.
احتضنني أبي، وقال والدموع تملأ عينيه:
_ لا يا حضرة العمدة، أنا من أستحق الجلد، أنا من سيعاقب.

لا تستقيم الدار بدون امرأة..!

يتدافع الناس نحو الباعة كأنهم في سباق، أبدو كالتائه هنا، يقودني الزحام من مكان لآخر، لقد تلوث حذائي اليتيم، قمت بتنظيفه سريعًا مما علق به من الطين الذي يملأ المكان خارج السوق، يبدو أن ماسورة مياه جديدة انفجرت اليوم.

جئت لانتقاء هدية لابني (مالك)، كنت قد وعدته بها إذا ما اجتاز امتحانات آخر العام، لقد اجتازها بتفوق، وها هو العام الجديد قد لاحت بشائره، وأنا لم أَفِ بوعدي بعد..!

عزمت على شراء مجموعة قصصية كهدية له، فهو يحب القراءة كأبيه، غير أن زوجتي لم يعجبها ذلك، اتهمتني بالخيالي الذي يأبى النزول إلى أرض الواقع، وصفت الهدية بعديمة الجدوى، وأشارت عليّ بشراء (طقم شيك) يتبختر به أمام أصدقائه، أذعنت لذلك هربًا من فلتات لسانها..!

مرت ساعة كاملة وأنا أجوب المكان دون أن أشتري شيئًا، انتبهت على صوت عويل يأتي من خلفي، فإذا بامرأة تهرول جزعة وقد تحلّق الناس حولها، لقد فقدت طفلها في هذا الزحام، غير أن رحمة الله قد أدركتها سريعًا، فما هي إلا لحظات وظهر أحد العاملين في المكان حاملًا طفلًا في الرابعة من عمره احتضنته المرأة بقوة وهي تحمد الله، وتتمتم بعبارات الشكر والامتنان لذلك العامل.

توقفت قليلًا أمام هذا المشهد، فتذكرت أمي التي رحلت عني وانا ابن إحدى عشرة سنة، بعد رحيلها فُطِمت من الحنان، وتزوج أبي بعدها سريعًا، كان يقول «لا تستقيم الدار بدون

امرأة» وجاءت المرأة واستقام أمر الدار غير أن أمري منذ ذلك الحين بدأ في الاعوجاج...!

_ آسف أستاذ، لم أنتبه.

_ لا عليك، حصل خير.

انغمست في خواطري، فلم أنتبه لذلك الرجل الذي ظهر أمامي فجأة حاملًا بعض ما حصل عليه في هذا السباق الذي لم أدخله بعد.

أمام الركن الخاص بملابس الأطفال وقفت أتفحص المعروض لعلي أجد شيئًا يناسب (مالك)، لكن لا صبر لي على ذلك ، فآثرت أن أستعين بالفتاة التي تعمل في المكان.

_ أريد (بذلة) تناسب طفلًا في العاشرة.

ما هي إلا لحظات وجاءتني بما طلبت، (بذلة) مناسبة تمامًا، ينطبق عليها أهم شرط حددته زوجتي العزيزة (شيك) هكذا قالت..!

نظرت إلى (الطقم الشيك) الذي أعادني إلى تلك الخواطر التي تلاحقني مذ دخولي هذا المكان ..

كان والدي سخيًّا عطوفًا يهتم بي كثيرًا، حتى تزوج تلك المرأة، تبدل السخاء بخلًا والاهتمام إهمالًا، حتى أصبحت عنصرًا ثانويًّا في حياته، استعملتني تلك المرأة خادمًا على مرأىً ومسمعٍ منه، لقد كان أمر الدار يهمه كثيرًا، أكثر حتى من أمري، اكتسى الوجه بمُرّ اليُتم وقسوته، ولم يعد لي من البهاء إلا الاسم..!

عندما أضحي الزواج مطلبًا حتميًّا لمثلي، قرر أبي أن يزوجني ابنة أخيه (سمية)، امتثلت لرغبته دون مناقشة، كانت

ماديّة جافة المشاعر، تجيد الإمساك بزمام الأمور، ويستهويها دور القائد كثيرًا، تكره الإقامة في هذه القرية التي لا تتناسب مع طموحاتها، كَثُرَتْ الخلافات بيننا، فأصبحنا كخطي سكة حديد يسيران جنبًا إلى جنب غير أنهما لا يلتقيان عند نقطة..!

بعد أن رُزِقت منها بـ (مالك)، اختلفت طريقة تفكيري قليلًا، بدأت أشعر بالقلق تجاه تلك المسئولية التي هبطت فوق رأسي، حاولت التعايش مع شخصية زوجتي التي طالما أرّقتني، غير أنني مع الوقت ركنت إليها، كنت أتذكر مقولة أبي «لا تستقيم الدار بدون امرأة»، تلاشت خلافاتنا شيئًا فشيئًا عندما أشبعت رغبتها وأعطيتها ما أرادت من قيادة وإدارة.

يجب أن أخرج من تلك المعمعة، قبل أن تتصل (سمية) وتتهمني بعدم الخبرة، وتضييع الوقت في أمور بسيطة، خرجت من ذلك السوق أصارع الازدحام، فإذا بسيارة تأتي من خلفي مسرعة، تطاير الطين في كل اتجاه، نظرت بأسىً إلى (الطقم الشيك) الذي سقط من يدي وغرق في الطين..!

هبة الله

عقد القلق اتفاقًا مع معدتها وأسنانها فنجحوا في إحداث الوقيعة بينها وبين النوم، تناولت مسكّنًا، وجلست تسامر دميتها التي تبثّها أسرارها وحكاياتها التي لا تنتهي.

_ غدًا محاولة جديدة يا صديقتي ..

أمل جديد في أن تحظى بفرصة عمل تعين بها أمها التي أنفقت سنواتها الخمسين في تربيتها وأخواتها الثلاث، (كاشير) في سوبر ماركت عمل قد يكفيهما سؤال اللئام.

عندما أخبر الطبيبُ الأمَّ أن طفلتها من أصحاب متلازمة داون، لم تفهم المرأة القروية البسيطة ما قصد، لكنها علمت أن الله ابتلاها بطفلة غير طبيعية هذه المرة، حمدت ربها وشكرته، أما الأب الذي يريد وليًّا للعهد، فهجر زوجته وبيته بعد أن رُزِق طفلة رابعة، غير أنها ذات إعاقة لا تحتمل..!

_ اطفئي النور ونامي يا «هبة» سهرتِ كثيرًا يا ابنتي.

أمها هي بطلتها الخارقة، لا تنسى أيام كانت تحملها بين يديها إلى الطبيب الذي دلّها عليه أحد الجيران، ظلت تفعل حتى جفّ المال في يدها.

عندما بلغت عامها السادس التحقت (هبة) بمدرسة دامجة لا يعرف مديرها فرقًا بين تلميذ طبيعي أو غيره، كانت تشعر أنها في عالم غريب يرفضها وترفضه، لا تقوى على المكوث داخل حجرة الدراسة كالبقية، تقضي الوقت لعبًا في الفناء أو في الحديقة تقطّع أزهارها وتلوذ بالفرار عند رؤية مدرس التربية الزراعية الذي ملّ معاقبتها دون جدوى، وقد تجدها في حجرة

المعلمين الذين اعتادوا رؤيتها، فكانوا جميعًا يعرفونها.

رفضها زملاؤها في البداية، لكنهم مع الوقت اعتادوها، اعتادوا إقبالها وإعراضها، هدوءها وثورتها، وجهها المسطح ورأسها الصغير يثير سخريتهم، أما شكل أصابع قدمها المتباعدة فطالما أثار خوفهم، عند اللعب تكون نقطة الخلاف: أي فريق سيقبل بانضمامها إليه؟ في النهاية تجلس (هبة) لحراسة حقائبهم على وعد باللعب، يوفون بوعدهم في آخر خمس دقائق، يتفرق فيها جلّهم عن ساحة اللعب، اكتشفت فيما بعد أنها كانت تنضم بعد انتهاء اللعب، وما هذا إلا وقت إضافي؛ لإرضائها..!

أستاذة (صفاء) -أخصائية النشاط المسرحي- هي فقط من تعلّقت بها وسط هذا الجمع؛ لأنها فهمت عالمها وعانقت صعابه، وساعدت أمها على ذلك، تذهب إلي منزلها ثلاثة أيام في الأسبوع، تعلمت منها ما لم تتعلمه خلال سنوات تسع قضتها في تلك المدرسة التي كان الدمج فيها حجرة، لم تعرف (هبة) طريقها إلا عندما دخلتها ذات يوم مع تلميذين آخرين بصحبة معلم التقط لهم صورًا بهاتفه، وهم يمسكون بعض الأدوات المبعثرة داخل الحجرة..!

بعد زواج أخواتها الثلاث، لم يعد بالبيت سواها وأمها التي باعت آخر قيراط من أرضها لتزفّ آخر بناتها (الصالحات للزواج)، كانت أمها ترفض أن تسمع منها تلك الجملة وتخاصمها كلما قالتها.

_ لننم الآن يا صديقتي، فغدًا ستشهدين هذه المحاولة أيضًا.

****

_ جئت بخصوص هذا الإعلان.

أخذ منها الإعلان، نظر فيه وكأنه يراه لأول مرة، أربكتها نظراته المرتابة الباردة، ثم قال وهو يلقي الإعلان أمامه:

_ لسنا بحاجة إلى موظفين.

_ وهذا الإعلان..؟!

_ قديم، إعلان قديم.

ودعته بابتسامة ساخرة، أطلت دميتها برأسها من الحقيبة تواسيها وتمسح دموعًا لا يراها أحد غيرها، جلست (هبة) على الرصيف تمسح عرق الحر واليأس، تنتظر ضميرًا حيًّا ويدًا.

سيرًا على الأقدام

لا تملك جيوبنا البائسة سوى بضعة جنيهات لا تسمن ولا تغني من جوع، لكننا قررنا السفر، تبدو فكرة جنونية، لكننا سنفعلها، إن لم يكن أمامنا سوى الجنون سنجنّ، هكذا قال لسان حالنا ونحن نناقش أمر السفر سيرًا على الأقدام..!

قال (عاصم) وهو يرتشف الشاي بطريقته المقززة:

_ رأيتم يوسف الرشيدي عائدًا من ليبيا ب(شيء وشويات).

قلت بنفاد صبر:

_ كيف نذهب إليها ليبيا هذه ونحن لا نملك مليمًا..؟!

رد (عابد) المعروف بين ثلاثتنا بجنونه:

_ (سلكاوي) كغيرنا، يرحب أهلها بالجميع، اسمعوا مني.

أمّن (عاصم) على كلامه قائلًا:

_ فرصة بما أننا في مطروح، هل نعود البلد بخيبتنا هذه.

لا نعرف كم من الكيلومترات علينا قطعها حتى نصل إلى ليبيا، لكننا سنقطعها، لا نحمل شهادات تقود عقولنا، لكننا نحمل من الفقر واليأس ما يجعل الحياة والموت يستويان في عيوننا، ونملك سواعد بإمكانها هدم الجبال، لن تملَّ كثيرًا إن قطعت تلك الصحاري.

بدأت رحلتنا مع خيوط الفجر، نسير ساعة ونجلس أخرى، حتى جنَّ الليل، فافترشنا العراء، ثم استيقظنا مذعورين على صوت يشبه كركرة الشيشة، إنه شاب يقود دابة محملة بالبضائع المهربة، يؤنس نفسه بالغناء في وحشة الظلام والصحراء.

أشرقت الشمس، استأنفنا الرحلة نحو الجانب الآخر من تلك

الأرض، بعد مسيرة ساعة، مر بنا رجل من أهل البدو الطيبين، يقود سيارة نصف نقل، تصطفّ فيها بعض غنيمات له، ركبنا معه حتى وصل البدوي حيث قصد، وتركناه لنكمل مسيرتنا نحو الغنى والثروة.

بعد مسيرة يومين، لاح الفرج من بعيد، وصلنا الحدود، بقي أن نعبر الأسلاك الفاصلة بين البلدين، الظلام يحتضن المكان، فلا نرى شيئًا، يجب أن نتدثر بذلك الظلام حتي لا يمسك بنا حرس الحدود، مرت ثلاث ساعات، كنا ندور خلالها حول أنفسنا، ونعود إلى المكان نفسه من جديد، ولما أكل الإعياء ما تبقى من قوانا، استلقينا فلم نشعر بأنفسنا إلا وشمس الصباح تلفح وجوهنا.

ها هي الأسلاك التي أعيانا البحث عنها ليلًا، على بعد خطوات منا، لكن ضوء النهار كشف سترنا، إن حاولنا المرور الآن سيمسكون بنا بلا شك، وإن مكثنا سيُمسك بنا أيضًا، بما أن النتيجة واحدة، إذن لا مفر.

اقتربنا من الأسلاك محاولين تجاوزها، غير أن عين الحارس لم تكن لتخطئنا.

_ اتركنا الله يرضى عنك يا دفعة، خذ ما تطلب واتركنا نعبر.

_ لا يمكن.

_ خمسة جنيهات كاملة، اعمل معروف يا دفعة.

_ مستحيل، مستحيل.. لا بد أن أسلمكم للشاويش.

ثم همس الحارس في آذاننا وهو يجرجرنا: اطمئنوا الشاويش بلدياتكم، وسيكرمكم.

قضينا نصف النهار في انتظار جناب الشاويش حتى ينظر في أمرنا، والحق أننا أُكرمنا في ذلك المكان كرمًا لم نتوقعه، أكلنا وشربنا حتى الشبع..!

جاء الشاويش، صعيدي كما قال الحارس، تركنا نعبر، وخطونا أول خطوة في بلد البترول الجميل، وبدأ كل منا يحلم بما ينتظره فيها من غنى، وما سيجني من مال، ورأى كل واحد منا في نفسه (يوسف الرشيدي)..!

بعد مسيرة يومين في شوارعها، وبعد أن وجدنا عملًا عند أحدهم، تمكن الأمن من القبض علينا، قال (عابد) محاولًا تخفيف حدة البؤس والأسى:

_ يوسف الرشيدي لم يكن وجه فقر مثلنا، عقد الفقر مع وجوهنا صفقة رابحة..!

هكذا قال الأسياد..!

قال بصوته المبحوح وهو يضغط على يدي الخشنة بيده الناعمة كجلد ثعبان:

_ يجب إراقة الدماء هنا وقتها سيفتح الكنز أبوابه على مصراعيها.

_ دم..؟!

_ هكذا قال الأسياد.

يؤكد لي الشيخ (معتوق) أن تحت جدران بيتي الكبير ينام كنز عظيم، لكن حارسه عنيد، طلباته لا تنتهي، غير أن طلبه هذه المرة صعب قليلًا، غير أنني على استعداد تام لفعل أي شيء حتى أفوز بالكنز، منذ شهرين وأنا منشغل بهذا الأمر، تركت الخروج إلى الحقل ومتابعة أرضي، مما أغضب زوجتي التي تصفني بالجنون.

_ دعك من هذا الدجال، أرضك ستبور، لن نجني من ورائه سوى الخراب.

_ دجال يا جاهلة، إنه مفتاح الخير الذي سنغرق فيه قريبًا.

الحمقاء تبكي همَّ الأرض، بم ستنفعني تلك القراريط البائسة، غدًا تُفتح أبواب هذا الكنز، وأغرق في بحر الثراء، يومها سأترك القرية بأكملها، وسأتركك أنتِ أيضًا يا (صفية).

_ ماذا سأفعل..؟!

قلت محدِّثًا نفسي أثناء سيري في الظلام على الجسر الغربي متدثِّرًا بمعطفي الثقيل الذي احتمي به من لسعات البرد القارسة، جلست فوق جذع نخلة أفكر في أمر الكنز، متسائلًا: كيف سأنفذ للأسياد طلبهم الأخير؟

_ خير يا جابر، لماذا تجلس هنا في هذا البرد؟
_ مهموم يا قاسم، مهموم يا صديقي ...
قذفت إلى ذهني فكرة لا بد من تنفيذها، (قاسم) هو القربان الذي سأقدمه للأسياد، لكنه.. لكنه صديقي، والكنز، هل سأضحي به؟! لا.. ما ساقه إلى هنا في هذا التوقيت إلا قدره المحتوم، يبدو أن الأسياد تساعدني، هل أرفض المساعدة..؟!
_ قم بنا نكمل السهرة عندي في البيت، ما قولك؟
_ تخاف زوجتي عندما أتأخر خارج الدار.
_ قم يا رجل قم، دعك منهن.
توجهنا إلى بيتي، من جميل الحظ أن الوقت متأخر وشوارع القرية خلت من المارة، أدخلته من الباب الخلفي حتى لا تشعر بنا زوجتي.
_ ما هذه الرائحة..؟!
_ بخور، زوجتي تغرق البيت برائحته كل ليلة، تقول إنه يدفع العين، كلام نسوان، سأحضر الشاي حالًا.
تأكدت أن زوجتي قد استغرقت في نومها، وكذلك ابني (عمر) الذي لم يتعَدَّ الثامنة، أحضرت كوبين من الشاي، بعد تناوله استلقى (قاسم) فاقدًا وعيه، اتصلت بالشيخ (معتوق) الذي جاء في الحال، أطلق بخوره وأجرى اتصالاته الخاصة بالأسياد، الذين أمروا بذبح (قاسم) وتمزيق أعضائه وتعبئتها في أكياس، ثم رميه في الترعة، بعد الانتهاء من المهمة، خرجت محتميًا بالظلام ألقيت الجثة في ترعة قريتنا النائمة، وقفلت عائدًا إلى البيت.
في اليوم التالي انقلبت القرية رأسًا على عقب بعد العثور

على الجثة المقطّعة، قالت زوجتي بعد عودتها من العزاء:
_ مسكين قاسم، كان رجلًا طيبًا.
_ كلنا مساكين وطيبون يا صفية.
ثم راحت تعيد أسطوانة الأرض التي لا تملّ إزعاجي بها كل يوم، لكنني زجرتها وأقسمت لأضربنها بلا رحمة إن أعادت هذا الكلام.
أصبحت قليل النوم، كلما غفلت عيني أرى (قاسمًا) غارقًا في دمه يصرخ ويستغيث بي، لما شكوت للشيخ (معتوق)، نصحني بأن انشغل بالتفكير في الكنز، وقتها ستذهب عني تلك الكوابيس..!
مرت الأيام وأبواب الكنز لا زالت مستعصية، حتى قال الشيخ (معتوق) -ذات مساء- بعد انتهاء الحفر:
_ لا بد أن يكون هذه المرة من دمك.
_ من هو..؟!
_ صاحب الدم.
_ أي دم..؟!
_ المطلوب دم من أهلك.
_ ماذا تقول يا شيخ معتوق..؟!
_ هذا ليس قولي يا جابر، هكذا قال الأسياد، الأسياد.
الأسياد يقسون علي هذه المرة، يطلبون دمًا قريبًا مني، أي اختبار هذا الذي يضعونني فيه، لكنهم حتمًا يعرفون ما لا أعرف، لا بد أن أنفذ طلبهم، فأنا أريد الكنز الذي يحرسون بأي ثمن، بأي ثمن..!
_ هل سنأكل التراب الذي تخرجه لنا من حفرك كل ليلة، سلامة

عقلك يا جابر، سنموت جوعًا إن لم تفق من جنونك هذا.
(صفية) سئمت منكِ، لا تيأسين من ترديد هذا الكلام ليل نهار.
_ لماذا لا ترد علي، سأشكوك لأبي، سأفشي سرك وأقول للناس أنك تبحث عن وهم وتوقف حياتنا أمامه.
اشتعلت نار الغضب في رأسي، جذبتها من شعرها حتى تعالت صرخاتها:
_ هل جننتِ يا امرأة، أقطع لسانك لو فعلتِ، تعرفينني.
أفلتت من يدي وهرولت نحو ابنها الذي استيقظ على صوت صراخها، جذبته من يده ودخلا الغرفة.
زوجتي الحمقاء تكره الخير، هي لا تنظر إلا تحت قدميها الفقيرتين، أي عاقل هذا الذي يترك البحث عن كنز عظيم وينشغل ببضعة قراريط لا تملأ بطوننا خبزًا، ماذا لو أخبرت هذه المجنونة أحدًا بما أفعل..؟!
نهضت قافزًا من فوق الأريكة التي أكل الفقر جسدها، عندما أنارت في عقلي تلك الفكرة المرعبة، مرعبة لكن لا بد منها، منه أتخلص من إلحاحها الذي صدعت به رأسي، وأنفذ ما طلبه الأسياد.
_ لا يتم الأمر هكذا، لا ينفع.
_ لماذا؟ ألم تقل أحدًا من أهلي، إنها زوجتي، اسألهم، حتمًا سيوافقون.
_ دم صغير لم يبلغ، هكذا قال الأسياد.
قلت بانفعال:
_ ماذا، ماذا تقصد يا شيخ معتوق.
_ دم ابنك هو المطلوب.

صرخت في وجهه، وأفلتُّ المعول من يدي فنزل على رجلي، نزف الدم منها، لكنني أكملت:

_ هل جننت يا شيخ معتوق، ماذا تقول..؟!

اقترب مني كالشبح المخيف، ثم قال بصوته الأجش:

_ لن أحاسبك على هذه الكلمة، وكأنه قولي يا جابر، أنسيت، إنها مطالب الأسياد، الأسياد.

لم أنبس بكلمة وكأنني أكلت لساني، ذهب الرجل وتركني غارقًا في نزف رجلي وقلبي.

في غرفة ابني، جلست بجانبه وهو مستغرق في النوم كملاك صغير، هل أسمع كلام الأسياد هذه المرة وأنفذ ما طلبوه؟! يطلبون روح صغيري، لكن إن لم أفعل، كيف سأعثر على الكنز؟ قطعت حبل تفكيري بصوتها المزعج:

_ خيرًا، ماذا تفعل هنا هذه الساعة؟

_ هل منعتني من غرفة ابني، لم أكن أعرف أن عليّ استئذانك..!

_ الله يهديك يا جابر، الله يهديك.

أخذت قراري، سأنفذه هذه الليلة، فقط أتأكد من نومها، وقتها سأنفذ دون تردد.

تسللت إلى غرفته، حملته بين يدي، في الحجرة التي ينام الكنز العنيد تحت جدرانها تركته بجانب أدوات الحفر، ورحت أجلب السكين، ارتجفت يدي وأنا أسنها، سالت دمعة شاردة لم أقوَ على منعها، لكن بفضل الكنز الذي يسكن بريقه رأسي استجمعت نفسي، وأمسكت السكين، كأنني نسيت كيف فعلت أول مرة، رحت أنظر للسكين تارة ولصغيري تارة أخري، الوقت يمضي، وصغيري مستلقٍ بين يديّ، والكنز يناديني، يناديني..!

الفهرس

م	العنوان	الصفحة
١-	إهداء	٣
٢-	طيارة ورق	٤
٣-	رجل أعمال	٦
٤-	قطرة جاز	٩
٥-	علبة حليب	١٢
٦-	كوريكتور	١٤
٧-	يا مطرة رخي	١٧
٨-	كم ذا يلاقي عاشق ويلاقي	٢٠
٩-	بائعة الخبز	٢٣
١٠-	في مكتب البريد	٢٧
١١-	هنا كانت قريتي	٣٠
١٢-	بيت العنكبوت	٣٣
١٣-	المتسولتان	٣٨
١٤-	الغريم الذي أحببته	٤٠
١٥-	ولكم في الصديق نجاة	٤٣
١٦-	عقوق	٤٧
١٧-	سلمى	٤٩
١٨-	نظرات لن تُمحى	٥٣
١٩-	العجوز والكلب الوفي	٥٦
٢٠-	كانت صديقتي	٦٠
٢١-	في الطريق إلى البيت	٦٤

٢٢- القراريط الخمس ٦٨
٢٣- الطريق الأسهل ٧٣
٢٤- قصة رومانسية ونهاية سعيدة ٧٥
٢٥- اشدد به أزري ٧٨
٢٦- مبلغ من المال ٨٢
٢٧- لا تستقيم الدار بدون امرأة ٨٥
٢٨- هبة الله ٨٨
٢٩- سيرا على الأقدام ٩١
٣٠- هكذا قال الأسياد ٩٤